الباروني

الكتاب : الباروني

المؤلف : محمد أبو النجا

تصميم الغلاف :

تدقيق لغوي : أحمد أسامه

رقم الإيداع :

الترقيم الدولي :

الطبعة الأولى : 2016

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت- 02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

الباروني

عندما يتلصص الميت على الحياة

رواية لـ

محمد أبو النجا

ن للنشر والتوزيع

إلى أبي..

.. مصطفى أبوالنجا (رحمه الله).

الباروني

(1)

ما أوشك أن أقصه عليكم يبدو مستحيلًا..

جنونيًا..

غريبًا..

ولكن هذا ما حدث، وهذا ما عشته.

(2)

أنا شاب يوشك على السقوط من حافة عِقدِه الثالث، اسمي هو "الباروني"، وهذا ليس اسم شهرتي أو لقب عائلتي، بل أنه اسمي الأول، أمي من انتخبته لي من بين أسماء جيراني، دون مراعاة لمراكزهم أو تاريخهم، وضعت شروطها عليهم دون حساب لمن عظمت مكانته العلمية، أو من خضع كتفيه لثقل نفوذه العسكري، أو من ملّكته أمواله زمام النفوس، لم يستطع أحدهم أن يزفر بنفس واحد معترض، وكيف يعترضون وهم أموات؟

نعم.. فأنا أقص عليكم الآن عبر مسجلي الصغير، أثناء جلوسي على أحد القبور ليلًا، فلقد ولدت هنا وعشت أيضا، أو بمعنى أدق حاولت أن أعيش.

بجواري يقع القبر الذي سميت على اسم صاحبه، هيئة القبر من الخارج كقصر يسكنه ملك الدنيا ولكنه في الحقيقة يسكنه ملك الموت، جدران رخامية تتنفس على سطح الأرض، تتغذى بواسطة جذورها العظمية، عظام "كاظم إبراهيم الباروني"، حكت لي أمي أنه في حياته كان واحدًا ممن أعطاهم الملك "الباشوية"، وهذا من الأسباب التي دعمت موقفه عندها.

فقد اصطفت قبور عديدة، حاملة على رأسها الشروط التي وضعتها أمي، ولكن تاريخ "كاظم الباروني" كان بمثابة كارت توصية قد قدم عند أقدامها، فمعظم الأسماء كانت تنتهي بلقب، وأغلب الألقاب تبدأ بحرفي الألف واللام، والعديد منهم يتصف بالهيبة والوقار، ولكن ليس كلهم أسماء باشوات حقيقية كالباروني.

وضعت أمي هذه الشروط لسبب واحد، حتى لا يموت اسمي، فلقد نسيت أن أخبركم باسم والدي الرباعي: (محمد محمد أحمد محمد)، واسم كهذا شائع جدًا في بلادنا للدرجة التي ينادى على صاحبه باسم عائلته عوضًا عنه.

وفي يوم ميلادي قد تحققت أول خطوة في حلمها، بعث اسم "الباروني" من جديد لتموت الأسماء السابقة، أملا في أن يعيش اسمي لقبًا في حياة القادمين من ذريتي.

وهنا يحضر السؤال: هل سوف يكون لي ذرية وأنا أسكن القبور؟ ليس قبل أن أدخل الدنيا، فلن أفعل كما فعل أبي بوضعه بذرة حياة في أرض الموت، فماذا حصد غير حياة نبضها الموت، دنيا عاشتها الآخرة، روح سكنتها الأشباح، ما فائدة حياة العظام غير استحلاب لعاب الكلاب؟

* * *

ذات مرة، قالت لي أمي عندما علمت بإعجابي بنجلة حارس المقابر:"عشان تخش دنيا لازم تدق الباب"، حينها استغربت حديثها، ما علاقة دخول الدنيا بالزواج؟! هل الدنيا هي النساء؟

تلك النصيحة جعلتني أصرف النظر عن الفتاة، فلن يوافق أباها بزواجها من شاب يكسب لقمة عيشه من نثر المياه والخوس على القبور، وفي حالة موافقته هل ستوافق هي على العيش في المقابر مثلي؟ كيف وهي تخاف عبور البوابة؟ فهي دائما ما تأتي بكيس الطعام وتناوله لأبيها على أعتاب البوابة وتنصرف على الفور.

لم يكن أمامي خيار غير إهمالها كما يهمل الليث الجائع ثمرة مستقرة عند مخالبه، ولأكون صادقًا مع نفسي، لم يقتصر إهمالي للفتاة لهذا السبب فحسب، فهناك حافزًا آخر قد دفعني لإغفالها، ألا وهو خيالي.

فعندما كنت أراها يُهيألي أنني أرى والدها ولكن بحجاب وعبائة، فأنا أتمنى لمس رطوبة جلد الدنيا لا جلد التمساح، تقبيل شفتيها لا شاربها، شم عطرها لا عفنها، انسياب أصابعي على شعرها لا صلعتها، رؤية احمرار كعبها لا تشققه.

ضحكت مستهزئًا من نفسي، فلو رأيتم المكان المضطجع فيه الآن لشاركتموني الضحكات على ما أمارسه من تشرط في اختيار دنيتي.

ليست المشكلة عندي في أن أدق الباب أو لا، ولكن المشكلة الحقيقية أين يكمن الباب الذي سيدخلني الدنيا؟

الوقت يقترب من منتصف الليل، وكالعادة عندما يُردَم القمر بتراب الظلام ولا يترك غير ضلعه الأعوجِ مُبَرْهِنًا على حياته، لا أرى غير تحديق أضواء المباني المترامية حول المقابر، يكاد لعابي ينساب أمام إثارة ألوانها.

لم تكن كل تلك المغريات موجودة في طفولتي، لقد كانت المباني من حولي قليلة، والآن قد تضاعف الموتى بتضاعف الأحياء، فأمام المقابر بنيت منطقة جديدة اسمها "الجوهرة"، ومن الخلف أنشأت قرية سياحية ومصيف خاص بضباط الشرطة، تسببا في حجب رؤية البحر عني.

والآن لا أرى من حولي غير ظلال رؤوس المقابر، يصاحبها سماعي لصرصرة الليل.

لحظة.. أنا أسمع وقع خطوات..

أعتقد عند استرجاعي لما سجلته الليلة لن أسمع خوف أنفاسي، فبرغم من جلوسي في المقابر ليلًا، فلا أشعر بخوف، في البداية كنت أعتقد أن هذا يرجع لعمري الذي قضيته هنا دون الخروج ولو مرة واحدة، ولكن لو كان هذا هو السبب فلماذا إذًا زار الخوف زملائي الأحياء عدة مرات؟ وأكثرهم كان صديقي الوحيد "يونس"، فلم يقتصر على قدر زيارته فقط بل أصبح من أهل صدره.

ومِن مَن أخاف؟ إنهم في النهاية مجرد أموات، لو زرعوا الخوف في النفوس فهذا لخصوبة خيال الأحياء.

وها هوالصوت كان مجرد وقع خطوات كلب ضال على عشب ذابل.

بعد هنيهة سمعت وقع خطوات من جديد، يبدو من ثقلها أنها تنتمي لإنسان، قفزت من فوق القبر، مختبئًا خلفه، ارتفعت برأسي لأنظر من فوق سطحه، واختبأت مرة أخرى بمجرد أن لمحت شيئًا قد تحرك.

أجلس الآن القرفصاء ساندًا ظهري على جدار القبر.. الصوت توقف.. لا أخفي عليكم، لقد لكزني توًا شعور بالخوف بغير العادة، لمجرد أن خطر لي أن يكون بني آدم من أهل الخارج، هل ينتمي للصوص القبور؟

سمعت حركة من جديد.

ينم الصوت على محاولة صاحبه في الخطو على أطراف أصابعه حتى لا يُكشف أمره.

من المؤكد انتمائه لأهل الخارج، كيف سأتعامل معه؟ أنا لا أفقه التعامل معهم غير وهم أموات، الصوت يبتعد، لماذا أقلق صدري؟ فهو على أرضي، إذًا أنا الطرف الأقوى.

أقترب برأسي من خلف حصني لأتفقده بنظرة، أعتقد أنه اختفى، فلا توجد حركة أمام بصري الذي يعافر في بحيرة من الطين، بياض جدران القبور المتراصة طوليًا تساعدني على رؤية الممر.

فجأة يداهم أذني هسهسة وطأ خطوات من خلف ظهري.. هل ألتف؟.. الخطوات تقترب.. أظنها على بُعد ثلاثة أو أربعة أمتار مني.. كيف سأتعامل معه؟.. تقترب خلف ظهري.. سأغلق المسجل.

* * *

لم ألتفت خلفي، ثَبُتُّ في مكاني، وفجأة توقفت الحركة خلفي مباشرة ولم يلبث أن وضع الظل يده على رأسي، مكثت لوهلة، ثم التفتت بغتة وقفزت لأتشبث بساقَي الشخص وأنا أزمجر، ففلتت من فمه صرخة فزع.

كان هذا الشخص هو يونس، صديقي الوحيد في المقابر، تركته حتى لا يتوقف قلبه من الخوف واستلقيت على ظهري مقهقهًا.

بمجرد أن استوعب الفخ الذي وقع فيه، انهال عليّ ضربًا وأنا لازلت أضحك ريثما أُرْهِقْنَا، جلسنا متجاورين نلتقط أنفاسنا، قال يونس :

- والله ماعندك رائحة الدم.

ضحكت، فاستطرد يونس باندهاش:

- كيف عرفت أنني المتسلل؟!

- لا أحد يستطيع السير في هذه العتمة ولا يتعثر إلا إذا كان من أهل "الجبّانة".
- من الممكن أن يكون عفريت.
- ما عفريت إلا بني آدم.

صمت يونس لبرهة ثم سألني:

- ماذا كنت تفعل هنا؟

أخرجت المسجل ووضعته أمام وجهه مباشرة، قال ساخرًا:

- علمناكم الشحاتة سبقتونا على الأبواب.
- أنت أوشكت أن تنهي الشرائط، أخسارة فيّ شريط واحد؟ أم الكحكة في يد اليتيم عجبة!

أمسك يونس المسجل واسترجع مسافة قصيرة، بدا عليه الدهشة الممزوجة بالإعجاب وقال:

- قعدتك بجواري وأنا أسجل أتت بفائدة.
- لأ.. لو أنت التحقت بمدرسة وكنت تكتب الشعر، فأنا حافظ تسعة أجزاء بالتجويد، هل نسيت؟!
- أنا لا أتذكر إلا صوت نهيقك.
- الله يسامحك.. لولا الحشرجة البسيطة بحنجرتي لكنت أمتلك الآن صنعة آكل منها الشهد.
- حشرجة! أنت محشور بعنقك طفل.
- الله يسامحك.

انتفض يونس على بغتة، فهناك حشرة قد التصقت بوجهه، ثم سقطت على فخذه بمجرد أن أزاحها، وكاد أن يسحقها لولا أن اعترضته، وأمسكت بها بأطراف أصابعي، وأطلقتها في الهواء، فصاح يونس:

- هل كانت من بَقيّة أهلك!
- كيف تضمن ألا تكون روح؟
- رجعنا للتخاريف.
- ليست تخاريف، الأرواح تلبس أشكالًا عديدة، قطة، كلب، فراشة..
- باروني.
- الله يسامحك.
- لا تزعل، لكن حتى لو افترضنا أن حديثك صحيح، ما الذي أتى بالأرواح هنا؟!

قالها يونس فحدقته بدهشة، وانفجرت ضحكاتنا، صمتنا بعدها لهنيهة انتبهنا خلالها لصرصرة الليل ولكني انتبهت أيضًا لضيق صدري إثر سخريته مني، حاولت أن أفتش عن حديث جديد تزيحُ ريحهُ الخنقة من على سطح صدري:

- ألم تنوي الخروج لتحضر لنا ما نأكله؟
- اللعنة.

قفز يونس منتصبًا، يبدو أنه تذكر شيئًا شديد الأهمية، بعد لحظة من حملقته بي استطرد:

- لقد نسيت.
- ماذا؟
- الباب موارب.

لم أجد نفسي غير وأنا منتصبًا أمامه قائلًا:

- ألازلت تتحدث معي؟!

وما أن قلتها حتى ركضت، تبعني يونس، كنا نتاسبق بين القبور، نركض بينها وننعطف كما لو كنا في وضح النهار، أراهن لو كنا في ليلة قمرية، وصادف أن رآنا شخصًا من ساكني العمارات المطلة على المقابر، لظن وقتها أننا شبحان نتسابق للعودة للحياة.

جمعنا ممر يقع في نهايته هدفنا، عندما أوشكنا على الإقتراب، أبطأنا من حركتنا ولكن لهفتنا زادت، كنت أستند بذراعي على الجدران، أدوس بقدمي على العشب الأخضر الذي ينتشر في عروق القبور، دائمًا ما يذكرني هذا العشب بالدود، الحياة الوحيدة التي تنبت من الموت.

قبل أمتار من اقترابنا شعرت بلعاب الحياة يسيل، كاد أن يتهاوى من زاوية فمي فمنعته قبل أن يلمس أرض محرمة عليه، كنت أسير خلف يونس الذي فاجئني بيديه تستوقفني، لهفة الإنتظار طعنتني، فلقد أصبحنا على بُعد بضعة سنتيمترات قليلة، أشرت له مستفسرًا فلا أستطيع التحدث حتى لا تفر فريستنا، لم يجاوبني ولكنني لم أستطع الإنتظار أكثر من ذلك، فدفعته من أمامي متقدمًا كقائد جيوش، يقف على بُعد لحظة من جلوسه على عرش الأرض.

(3)

التراب لا يغطي الموت وحسب، بل أحيانًا يغطي الحياة أيضا، فلقد كان الشرق بمثابة الرحم لمدينة بورسعيد، ففور أن حفرت قناة السويس وقد نفخت الروح، فجميع الأحياء شكلتهم الماء، حتى المدن، ولأن لكل شروق غروب، فقد اختير غرب المدينة ليكون غروب الأرواح من مطاره.

عند مدخل شاطئ الجميل بنيت المقابر أو "الجبّانة".هكذا نطلق عليها، لا أعرف سبب تسميتها بهذا الإسم، أعتقد أن مسمى "الجبّانة" مشتق من شعور الجُبن.

المقابر مقسمة لعدة أبواب، خمسة بوابات لمقابر المسلمين وبوابات أخرى لمقابر الكاثوليك والأرثوذكس والكومنولث، تطل تلك البوابات على شارع كسرى، والبوابات الخلفية تطل على شارع 23 يوليو، وتلك الأخيرة المفضلة لي، لا أعلم لماذا؟ هل لموقعها المطل على البحر، أم لافتقارها مرور البشر، فلا تمر غير السيارات الخارجة والداخلة للمدينة، والمترددون على القرى السياحية، بعكس الأبواب المطلة على مبنى (إدارة شرطة الأحوال المدنية)، ومنطقة "الجوهرة" السكنية.

* * *

في صغري كنت أتسلل لقبور الكومنولث (ضحايا الحرب العالمية)، كانت عبارة عن ألواح رخامية بيضاء مغروسة في أرض خضراء واسعة، كنت ألهو براحتي، دون الإقتراب من المقابر الأخرى، فلقد كانت أضرحة الأرثوذكس والكاثوليك لها رهبة غامضة في صدري، كانت كبيوت الأحياء، بها أبواب ونوافذ، ولذلك عند عبوري من خلالها إلى قبور الكومنولث كنت أركض بشدة خائفًا.

وظللت أذهب إليها إلى أن علمت أمي فضربتني ووبختني بشدة وحرمت عليّ اللعب مرة أخرى على أرض الموتى، وخوفتني من عذاب كبير، فانقطعت فترة طويلة كنت خلالها أطلب من ربي المغفرة.

* * *

بعد مرور عدة سنوات قليلة أتى صديقي الوحيد، يونس، بصحبة جده الذي استأجر حوش ليسكنا به، ظللت فترة أشعر بتوجس من الإقتراب منه، فلم يكن يشبهني، بل كان يحمل هيئة ورائحة أهل الخارج، ولكن وحدتي وتقارب عمرنا قد دفعاني للتقرب منه.

طالما كان يونس يملك لسانًا لاذعًا وبذرة جحود تتعطش لمياه الدنيا لا المياه التي ننثرها على القبور رحمة ونور، ولكنني كنت أرى فيه من يكملني، من يصحح لي معلوماتي عن الخارج، من يقضي لي احتياجاتي من المأكل والمشرب، والملبس الذي نحصل عليه من إحدى الجهات الخيرية.

ولا أنكر شعوري بالغيرة منه، فلقد كان يملك الكثير والكثير مما يسد خانة فضولي ويخجلني في ذات الوقت، يكفي جده (رحمه الله)، هذا العجوز الذي طالما حدثنا عن عشقه للفلسفة، فهو من علمني كيف أتأمل، وكيف أتذوق ما حولي.

ولأنني احتفظت في صدري بكل تلك المشاعر المتشابكة تجاه يونس، فقط كشفت له عن سري، حتى أُثبِتُ له أنني على الأقل أملك شيئًا، سخر مني في البداية تقليلًا من شأنه، ولكن كان لإفشائه فائدة، فلقد شجعني للعودة لقبور الكومنولث، والغريب أنه أحب قبور الكاثوليك والأرثوذكس، والأغرب أنه لنفس السبب الذي بثّ الذعر في قلبي تجاهها.

كان يونس يتوقف عند ضريح ويشب ليسترق النظر عبر نافذته، كأنه يأمل رؤية أحياء، لا أنكر أن الأضرحة لها شكل يسلب القلب، فلها تصاميم هندسية بديعة، تتقدمها تماثيل لفتيات بأجنحة وأرباع تماثيل لرجال ونساء.

كان يتأمل الصور المعلقة على القبور، كانت لرجال ونساء وأطفال، وجد يونس فيهم التربة الخصبة لخياله، فكان يتحدث معهم وينسج من خلالهم قصص خيالية عديدة، في حين كنت قد بدأت أنا في مساعدة أمي في العمل، وبدأت عملي بنثر المياه والخوس على القبور.

من هنا انتبهت للأسماء التي تحملها القبور، وحفظت الزائرين المعتادين، وتخيلت أنا القصص حسب وقع اسم المتوفي على أذني،

وحسب عدد الزيارات التي تأتيه، فمن يأتيه الكثير كنت أعتبره رجلًا صالحًا وأتخيله بطل الخير، ومن يفتقرها كنت أتخيل الشر الذي فعله في حياته وكم العذاب الذي يتلقاه في قبره.

* * *

استيقظت على أذان الفجر كعادتي، صليت وجلست بعدها بالقرب من الباب الأمامي، منتظرًا رزقي.

جالسًا الآن وقد فتح الباب لاستقبال الزائرين والساكنين الجدد، لم يعد حارس البوابة يستغرب تحدثي في المسجل، يجلس أمامي زميل يعرض على الزائرين خدماته في نثر المياه والخوس على قبور ذويهم، لم أستطع مجاراته، وهو يعلم خجلي من عرض الخدمة على الغرباء ولكن ما لا يعلمه أنني أشعر بريبة تجاههم، يأتيني شعور يدفعني للركض من بينهم كما كنت أفعل عند قبور الكاثوليك والأرثوذكس، وللأسف هو يستغل هذا.

سأغلق الآن لأن يونس قد استيقظ، لا بد من أنه سيوبخني لما سببته أمس، فما فقدناه أمس لا يعوض إلا كل عدة أشهر مرة، وأحيانًا يمر عام كامل دون أن تأتي الفرصة.

ماذا ينوي فعله؟ فهو يبدو حانقًا بشدة.

* * *

مر يونس من أمامي دون أن يعيرني أي اهتمام، متجهًا خارج المقابر، صحت فيه:

- إلى أين؟
- أي مكان بعيد عن هنا.

نهضت واستوقفته وأنا أضع يدي على كتفه فأزالها على الفور، قلت له:

- ألازلت متضايق من ما حدث ليلة البارحة؟ أنا كنت...
- لا تقول ولا تعيد، سوف أتركها لك وأخرج.

دفعني وكاد أن يخرج لولا أن استوقفته من جديد، وأخذت أتودد له وقتًا طويلًا إلى أن تصالحنا، أعلم جيدًا أن قلبه لم يصفَ ولكنه حسبها كالعادة بعقله فوجد أنه سيخسر كثيرًا بخسارته صداقتنا، الشيء الوحيد الذي يملكه، قلت له:

- مادام صافي يا لبن، إلى أين إذًا؟
- معي نقود سأشتري بها مناديل ورقية.
- ستجلس بهم!
- أليس أفضل من أن أضع وجهي بوجه الميتين.

كاد أن يرحل ولكنه توقف يسألني:

- ألم تنوي؟

- لا.. هذا أفضل لي.

قلتها وأنا أجلس بجوار أحد القبور، فصاح منفعلًا:

- فلتجلس هكذا لا حيّ ولا ميت، ستظل طيلة عمرك حمار، عمرك يمر من أسفل قدميك دون أن تشعر، من ماذا تخاف؟! سيأكلوك أم سيأكلوك.. ولماذا أرهق قلبي معك؟

رحل يونس غاضبًا.

هذا هو يونس من حينٍ لآخر، يشتري مناديل ويجلس يبيعها أمام (إدارة شرطة الأحوال المدنية)، لا لشيء غير أن يحتك بأهل الدنيا، وكالعادة يخذلوه ولا يبيع إلا القليل ولكن تقع المشكلة في انتهاء يومه.

فهو يعود شخص ممتلئ بالجحود والتقزز من المكان وناسه، وأظل أيامًا عديدة أشحذ منه الحديث، هذا غير انقطاعه التام عن الصلاة، فهو لا يواظب عليها ودائمًا ما يصلي جماعة معنا تجنبًا للإحراج والسخرية التي ينالها من زملائنا بالمكان عند محاولته الهروب منها، ولكن عند عودته من الخارج ينقطع عنها تمامًا حتى في صلاة الجمعة، ولا يكترث لسخريات ولا يعير أي إهتمامٍ لنا.

حتى مزاجه يتغير في نوعية الأغاني التي يستمع إليها، فهو يعشق الأغاني الطويلة لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ، وقد جاء عشقنا لها عن طريق الصدفة، عندما وجد يونس أحد ملاك المحلات يلقي بأشياء لم يعد بحاجة لها، كان من بينهم الشرائط والمسجل الصغير الذي أصلحناه

بالدق على واجهته، يعود يونس ويشغل شرائط الكاسيت لأغاني مطربي التسعينيات، أغاني قصيرة وسريعة تقترب من ما سمعه في مسجلات السيارات في الخارج.

يتعارك معي لأنني أسجل عليهم، برغم من أنه أول من كان يسجل عليهم بصوته.

هناك زائر يمتلك وجهًا مألوفًا يدخل من البوابة، استغليت انشغال زميلي مع زائر آخر وأقبلت عليه، لم أعرض عليه خدماتي ولكنني سبقته إلى المقبرة المقصودة، فصاحبها رجل من رجال الخير، وأنا أحفظ زائريه كما أحفظ أسماء جيراني الموتى.

ظللت واقفًا على استحياء بمقربة منه وهو يتلو على المقبرة آيات قرآنية، بمجرد انتهائه طلب مني ممارسة مهنتي، فاقتربت مرتبكا، فحتى لو وجهه مألوفًا لي فهو أولًا وأخيرًا يحسب على أهل الخارج.

نثرت المياه ووضعت الخوس على المقبرة، ورجعت عدة خطوات مطرقًا رأسي في انتظار أن يمن عليّ ببضعة جنيهات، مكث قليلًا ثم ابتسم قائلًا بتعجب:

- سبحان الله.. رش المياه على الميت محبة ورشها على الحيّ عداوة!

لم أكترث لمقصد كلماته، كل ما كان يعنيني أن يعطيني نقودي لأرحل بعيدًا عنه، مكث لهنيهة كنت أحترق حينها من الإنتظار، ولم يلبث أن

دس كفه في جيبه، وفجأة نسيت الزائر ونسيت نقودي، ونظرت عاليًا كالمسحور، ظل واقفا ماددًا يده لي بالنقود ريثما لاحظ شرودي، فتتبع رصدي ليتناثر على رأسه هو الآخر تراب الجنيات.

أعتقد لو كنا في مقابر الكاثوليك والأرثوذكس وقتها لظن الزائرين أننا اثنان من التماثيل المحيطة بأضرحة المكان.

(4)

كان الليل يقترب من منتصفه، والنعاس يضغط على ظهري حتى أخنع له ولكني مكثت أتودد ليونس ليتحدث ويخرج من بؤسه، وأخيرًا أخذت قراري بالصمت عند شعوري باستحلاب بقرة عاقر، فطفقت أتأمل الشارع من خلف الباب الخلفي.

كنا جالسان متقابلين، مستندًا كلًا منا على حافة قبر، ورائنا الليل يخيم على القبور البيضاء، فكان المشهد أشبه بسبورة مشوبة برتوش طباشير، وأمامنا المصابيح الكهربائية تستعرض مهارتها على مسرح لن يستطع الليل أن يسدل ستاره عليه طالما هناك عرض.

توقفت أغنية "أنت عمري" لأم كلثوم، فانتبه يونس وأعاد الأغنية من جديد، هنا وجدتها فرصة فقلت:

- لقد فتحت البلكونة اليوم.

فنظر يونس يساره قاصدًا بلكونة بالطابق الرابع في عمارات "الجوهرة" المقابلة للمقابر، كان انعدام الإضاءة بالمنزل لا ينم عن وجود أحدٍ بها، فقال منفعلًا:

- تستهزأ بي؟
- لا، فمن الممكن أن تكون خارجة أو نائمة.

- وسعيد الحظ الذي معها في قلب البيت نائم هو الآخر؟
- ولو أنت معها في نفس المنزل هل ستشاهد التلفاز؟

قهقه قائلًا:

- لديك حق في هذا.

بمجرد أن استطعت التسلل للسانه وجذبه إلى مينائي انشرح صدري فنهضت راضيًا، سألني:

- إلى أين؟
- سأنام، يكفي هذا.

ولم يلبث أن أضاء المنزل المقصود، فخطوت مقتربًا على أمل خروجها وبعد عدة أمتار أشرقت دنيتي، فناديت على يونس ولكنه تصرف بغرابة، أمسى رابضًا ينظر بين ضلوع الباب دون الإكتراث لندائي.

- يونس.. خرجت، خرجت والله خرجت.

أخذت أتأملها محاولًا منع عيني من الرمش، أقبل عليّ يونس هامسا بسعادة:

- الباب موارب، تحرك، بقلك الباب موارب يالوح.

كان حظ وفير أن يكون الباب موارب ليومين متتابعين ولكن هكذا الحظ، إما أن تأتي الفرص في وقتٍ واحد وإما لا تأتي أبدًا، يأس مني فقصد الباب بخطواتٍ حذرة.

بمجرد ظهورها وقد شعرت بنار تملأ صدري، ثعبان أناكوندا يعتصر قلبي، لماذا ينتابني هذا الشعور كلما رأيتها، رؤيتها شقاء ولكنه شقاء يحمل من المغريات أطنانان، أخذتني خطواتي دون إرادتي، ريثما توقفت عند سور المقابر، لا يفصل بين السور وعمارتها غير شارع كسرى.

شرعت في التمتع بالنظر إليها، شعر حريريٌّ طويل يتخلله هواء البحر، بشرة ناصعة البياض يعاكس ضوئها عيون المصابيح الضوئية، لا أعلم إلى الآن لماذا أنا معلق بها هكذا؟ هل لأنها أول أنثى أراها لا تختفي خلف السواد، أم لأنها أول أنثى تتحدى ضحكاتها جاذبية أرض الدنيا وتبحر برشاقة في فضاء المقابر؟

خرج زوجها سعيد الحظ، قبّل كتفها العاري والتصق بها يداعب شعرها بيد ويقضم ثمرة باليد الأخرى، هناك رعشة تعتريني، شعر ينتصب على سطح جلدي بعدما كان ذابلا، قلب يستغيث من دفنه حيًا داخل صدر نثرت عليه المياه والخوس، هل هذا الشقاء الذي وعد به الله آدم في الأرض؟ لا أعلم، ولا أعلم هل هذا السؤال يدعوني لاستغفار ربي أم لا؟

ينظر زوجها خلفه، ثم ينحني ويصعد حاملا طفلا، كم أتمنى أن أكون مكان هذا الرجل.

بعد هنيهة مضوا للداخل، وهنا أتذكر "الباب". فأركض بين القبور في سباق مع فرصتي، أقترب من يونس المختبئ بجوار الباب، ينظر لي ويأمرني بالتمهل، أبطأ وأخطو على أطراف أصابعي لأثبت بجواره، وهنا أشب رأسي لأسترق النظر.

كانت هناك سيارة متوقفة بالقرب من الباب وقد أطفأت مصابيحها، يتسلل منها أصوات ملتحمة في شهوة.

شيء عجيب! فلقد كنت أشاهد ما يحدث دون أي إحساس بجمرة الصدر كما كنت منذ قليل! ولكنني لا أنكر استمتاعي باستراق النظر، شيء ممتع أن تتسلل لمشاهدة ما هو ممنوع، والأمتع هو التجسس على أهل الدنيا.

أثناء شرودي في مشاهدتهما انتفض يونس من أمامي ووبخني بصوت كفحيح الأفاعي، حتى لا يزعجهما، يبدو أن من تركيزي لم أدرك أن يدي أخذت تحسس على جسده:

- ياحمار! إنت مع أي لحمة والسلام؟!
- الله يسامحك.

انتبهنا لاهتزاز السيارة فنظرنا لبعضنا نظرة خبث، فقد حانت ذروة نشوتنا.

تحركنا ببطء، وفجأة اعتلينا الباب الذي يتعدى المترين، وصرخنا بقوة جعلت صدرنا يهتز لوقعها، فما أدراكم بهما.

انطلقت صرخاتهما حتى أننا لم نستطع التفرقة بين صراخ الشاب من الفتاة، تعلقت الفتاة - النصف عارية – بعنقه، فارتبك أكثر وكاد أن يسقط من السيارة بعدما فتح بابه بحركة غير إرادية، ولم يلبث أن انطلق بالعربة بسرعة طائشة.

* * *

انفجرنا بالضحكات التي تخللها نوبات من السعال، هكذا تنتهي سهرة "الباب الموارب"، بعدها ينتابني شعور بالذنب وأجلس مستغرقًا في الإستغفار من التجسس على العورات، أما يونس فيعتريه شعور بالرضا، فهو يتمتع بإفزاع هؤلاء أكثر من مشاهدتهم، ويشعر بالقوة والسلطة التي تبدو من حديثه ومشيته وإشاراته، فدائمًا ينتشي بالسعادة عندما ينغص جلسة اثنين من أهل الخارج، كأنما يقول للشاب: لقد جعلتها تصرخ كما تفعل، وأحرجتك وأذللتك أمامها، ويقول للفتاة: لابد أن تحسني اختيار من تسمحي له بتذوق فاكهتك، فأنا الأولى لأنني الأقوى.

لا أعرف هل نظرتي فيه صحيحة أم لا؟ ولكن هذا ما أراه فيه بعد كل سهرة من سهرات "الباب الموارب"، أما الغريب في أمر تلك الليلة تحديدًا أن بعد نوبات الضحك كان رد فعله مخالف لتاريخه بعد تلك السهرات، فما فعله يونس في اليوم التالي لم يكن عجيبًا فحسب بل صادمًا، وبمثابة الفاجعة لي، لماذا فعل هذا؟!

(5)

بمجرد معرفتي لم أشغل بالي كثيرًا، صليت الفجر وحملت دلو الماء والخوس وجلست بالقرب من الباب في انتظار رزقي ولكن بتأكدي تحولت لمجنون، أركض بين أروقة المقابر، وعلى حدود السور، ككلب حراسة يحوم قلقًا على منزل صاحبه ولكن هدفي كان مختلفًا، فلقد كنت أبحث عن يونس.

في البداية، لم يخطر ببالي أن يخرج يونس بلا عودة، كالمولود الحديث الذي يستحيل له العودة لرحم أمه، فلقد ظننت أنه خرج ليجلس أمام (إدارة شرطة الأحوال المدنية)، ولكنني عرفت متأخرا أنه لملم جميع أغراضه وهجّ.

لم أتخيل أنه سيفعل ما قاله.

لقد ضاق صدرنا من الضحك أمس، فمضيت للنوم ولكنه ظل كالفأر المحبوس داخل مصيدة، أخذ يسب ويلعن في المقابر، كان يبدي رغبته مرارًا وتكرارًا في دخول الدنيا، كان كطفل لم يعد يستطع حمل ثقل قد أحنى ظهره، الخنقة والضيق ونفاذ الصبر شكلوا منه قنبلة أوشكت على الإنفجار ولكنني لم أتخيل أنه سيفعل ما قاله.

* * *

يأست من عودته، فعدت إلى يأسي، وأرضيت نفسي بكلمات تدين غفوته، فالأيام تمر عليّ في الداخل كما ستمر عليه في الخارج، فلو حسب عدد ساعات نومه وجمعها على عدد ساعات شقائه فكم سيتبقى له ليتمتع به في هذه الدنيا، ليس الثمن الذي سيبيع به آخرته، إنني أفضل منه عند الله، فأنا أعيش على خدمة الموتى، أنا بعيد عن المفاتن، أنا بعيد عن المعاصي.

مرت الأيام، وسرعان ما ارتد قلبي إلى الطيش، عدت إلى انتظار امرأة البلكونة، عدت لانتظار موارية الباب، والفزع، وصرخات الفتيات، هناك من فقدن الوعي بمجرد مشاهدة ظلام المقابر يلدني، وهناك من تخشبت ملامحهن، ومن خرجت بما تبقى من ثيابها راكضة في الشارع بهستريا.

كنت أحاول ملء الفراغ الذي تركه بأي شيء ولكن بعد حين اكتشفت أن محاولاتي قد بائت بالفشل، فمتعتي بموارية الباب قد أوشكت على التحلل، يبدو أنه من الفرط في استخدامها، أو لأن أساس متعتي كان في مشاركة يونس الحدث.

وما زاد الطين بلة اختفاء المرأة تمامًا في الآونة الأخيرة، فلم يعد يظهر في البلكونة غير زوجها وطفلها، أين ذهبت؟ ولمتي؟

* * *

لن أنكر أن فكرة الخروج خطرت على بالي عدة مرات، فاختفاء يونس جعلني أحمل كفني وأقدمه للوقت، لم أعلم أن الوقت يرافقه كل هؤلاء الأصدقاء: الضجر، الضياع، الضيق وغيرهم.

شعرت أن المقابر تضيق وتضيق ريثما أصبحت قبرًا واحدًا لا يتسع إلا لي.

جلست على ركبتيَّ خلف قضبان الباب، وجعلت أتخيل عدم وجود المصيف، لأتمتع بالنظر للبحر، طالما شعرت بحنين وانتماء له، لا أعلم لماذا؟ هل أحن للمياه التي خلقت منها؟ فالإنسان خليط من مياه وتراب، وإذا حرم من المياه لا يمكنه العيش على التراب، فيعيش التراب عليه.

أخاف الموت فقط لأنني سأحرم من المياه، ولكني بالفعل محروم منها، فموضع مكان المصيف يمنعني عنها، ها هم أهل الدنيا يقفون بيني وبين أصل الحياة.

لماذا أضعهم عائق لي؟ نعم أنا من أضع تلك الأسوار، أين الأسوار؟

فأمامي باب عتيق هالك صدئ يتعدى المترين ببضعة سنتيمترات قليلة، تكافئني ذاكرتي باسترجاع رؤية البحر وصوت أمواجه ورائحة اليود، أشعر بأمواج تدفعني، نسائم تملأ صدري وترفعني.

أنهض من فوق أوراق الأشجار الذابلة، أقف مشدودًا فتلامس رأسي أوراق الشجر النضرة، كم أشعر بضئالة الباب أمام قوامي، إنه شديد الضئالة، ارتفاعه كارتفاع الرصيف.

فجأة يداهمني صوت آذان العصر يحلق حولي، فيحملني خيالي على بساط لأرى كم الظلم الذي سيقع عليّ من أهل الدنيا، كم المعاصي التي سأغرق فيها، سرعة الوقت الذي سيقلني إلى نهايتي دون أن أستسيغ طعم الدنيا.

أنظر خلفي لأجد حارس باب المقابر الرئيسي يحمل سجادة الصلاة، فأرجع مرة أخرى للنظر أمامي لأجد نفسي ضئيلًا جدًا أمام الباب، كما لو كنت أقف أمام باب قلعة.

أشعر بالأمواج تتخلى عني، وصدري يفقد هواءه فيضيق ريثما تلامس أضلعه بعضها بعضًا، أتراجع وأمضي قاصدًا صلاة الجماعة، فهذا ما سيفيدني في تلك الحياة شديدة الصغر، أترجل ببطءٍ غير مكترثٍ لنداء البحر، تبطئ خطواتي كلما ابتعدت، هل أقف؟ هل أرجع؟ هل أقفز؟

* * *

أن تحملك المياه، شعور لا يوصف بكلمات.

أن تحملك المياه، شعور ينسيك يوم سوف تحملك فيه أيادي البشر، فالمياه تحملك لسطح الدنيا، والأيادي تحملك لبطنها، ترفعني موجة عاليًا، لأغطس بعدها في العمق، وفجأة أستيقظ من نومي على صوت

حركة، استطلعت ما حولي بغيظ، هل ما انتشلني من حلمي قطة أم كلب؟

رجعت لنومي عسى أن أغطس مرة أخرى في النعيم، دقائق وسمعت الصوت مرة أخرى، وفي لحظة خيّل لي رؤيتي لجسد أحدهم، قفزت من مكاني، أصيح بصوت محذر، ولم يلبث أن رأيت ظل أحدهم يركض بعيدًا، لن أنكر، فقد داهمني الخوف لمجرد أن خطر لي أنه متسلل من خارج المقابر، جلست على فراشي أسمع دقات قلبي ولكن هنا كانت الصدمة، بمجرد أن اختلَجْتُ نظرةً بجانب الفراش اكتشفت فقداني لأهم شيء بالنسبة لي.

لم أفكر، قفزت في بنطالي الأصفر وارتديت قميصي الأزرق، وركضت كالمجنون أبحث عن السارق.

صعدت فوق أحد القبور لأكشف المكان أسفل ضوء القمر، وقبل أن أيأس وجدت خيالًا يقترب من الباب الخلفي، ركضت من أروقة مختصرة، فجريت سريعًا ريثما وصلت لمكانه، لم أجده، التقطت حجرًا وشرعت ألتفت حولي باحثًا عنه، وما أن التفت يمينًا حتى سمعت حركته يسارًا، فركضت وراء مصدر الصوت بين المقابر، ليأتيني الصوت مرة أخرى من خلفي.

أرسلت نظري سريعًا فوجدت الظل يقفز من فوق الباب الخلفي، فركضت سريعًا وفي لحظة وجدت نفسي أقفز خلفه، لم أكترث لوقوفي

خارج القبور للمرة الأولى في حياتي قدر ما اهتممت باستعادة ما سرقه مني.

نظرت يمينًا ويسارًا لم أجده، وما كدت أن أتجه يسارًا حتى لمحت ظله يمينًا، كان بيني وبينه سيارة مصطفة، كان مختبئًا خلفها، وضعت يدي على حقيبتها الخلفية لتساعدني على القفز مختصرًا المسافة، وفجأة داهمني ضوء شديد، وصوت مكابح سيارة أشد، اصطدمت بواجهة سيارة ضخمة، دفعتني، فارتطمت رأسي بالأرض، فاختفت الدنيا من أمام بصري، ليحل مكانها ظلام مدلهم.

الميت

(1)

الآلام تعبث، تهرس، تحرث رأسي.

هذا ما أدركته منذ استرداد وعيي.. بدأت أنتبه لضوضاء خلف ظهري.. وما أن التفتت حتى تلألأت الأوجاع في جسدي.. عجز جسدي عن تلبية رغبتي ومكث.. وكانت فرصة لعقلي لاستجماع ما حدث.

كنت مفترشًا الأسفلت.. وجهي بوجه الرصيف.. يبدو أنني غبت عن الوعي لوقت وجيز؛ لأن الأصوات المحتدمة في أذني كانت حول الحادث.

هنا ضغطت على نفسي والتفتت.. كان جمهور من الناس بجوار عربة نصف نقل.. يبدو أنها هي من صدمتني.

هناك جسد يلتفون حوله ويتشاورون حول كيفية إنقاذه، كيف وأنا من صدمت؟!

هناك شيء غريب يجذبني.. ينفخ في أتربة الاستفهام والتعجب في صدري.. لماذا لا ينتبه أحدًا لي؟! ومن هذا الذي سلب اكتراثهم عني؟!

آلامي غلبت خجلي وريبتي من البشر.. فحاولت طلب المساعدة بصوت متحشرج لم ينصف.. لم يسعف.. لقد كان كالبصقة وسط المطر.. ولم يلبث أن اتفقوا وحملوا الشخص صاحب نقطة الإهتمام.. كان كالغزالة التي فقدت روحها بين شرزمة من الأسود.. لم أستطع

مشاهدة وجهه بسبب التجمهر ولكن بمجرد وضعه في المقعد الأمامي لاحظت أنه يرتدي قميصًا أزرق وبنطلونًا أصفر.

مثلي تمامًا!

خطرت فكرة سوداء برأسي وكدت أن أتأكد منها ولكن جسده سقط مستسلمًا بجوار السائق، أثر إغلاق الباب.. للأسف، لم أستطع التحقق من ملامحه.

انطلقت السيارة وحاولت تكرار طلب المساعدة دون جدوى.. فقد تفرق الجمهور كالنمل عندما نفخ الهواء في صفهم.

لاحظت..

وانتبهت أن عيني أحدهم تقابلت بعيني.. ناديت له بيدي ولكنه أكمل طريقه مباشرة.. كان في نظراته أمرًا عجيب.. كان كالذي ينظر في فضاء لا لبشر من لحم ودم.. ألم يشاهدني بالفعل؟! ألمٌ قاسٍ يجذب رأسي من جديد لغياهب الظلام.

استسلمت.

* * *

استيقظت في اليوم التالي بنفس مكاني وحالتي.. شعرت بنسمة وجه الصباح.. بمرور دقائق تحملت الألم وصعدت لأستلقى على الرصيف..

كان الشارع خاليًا تمامًا من المارة.. أغمضت عيني.. دقائق وتطرق لأذني وقعات كعبٍ عالٍ.

كانت المرة الأولى التي أرى فيها ساقيّ امرأة من هذا القرب.. تخطى جمالهما خيالي الفياض.. ارتقيت ببصري خطوات.. وهنا لم أصدق ما رأيته.. كانت آخر امرأة أتخيل وقوفها أمامي.. قالت لي بنبرة حنونة:

- أنت كويس؟

فهمت وقتها كيف يعقد اللسان.. هززت رأسي بالإيجاب.. فقد كنت مرتبكًا للغاية، قالت:

- مش باين.

أطرقت.. وأخذت أبحث في رأسي عن كلمة أنطق بها.. كان البحث عن شعرة بيضاء خلف رأسي دون مرآة أسهل بكثير.. فحديثي مع امرأة ظللت عمري كله أتأملها وهي واقفة في البلكونة أشبه بنزول نجم من السماء ومثوله أمامي.. قالت:

- اللي حصلك ليلة امبارح.

حملقت بها بشدة، فصمتت ثم أكملت وهي تهز رأسها:

- أيوا أنا شوفت اللي حصل امبارح.. مش عايزاك تستغرب.. كام يوم وهتستوعب اللي حصل.

هنا تذكرت ما عشته بعد الحادث.. هلاوس جعلت مني أضحوكة أمام نفسي.. كيف صدقت أن الناس تعاونوا في حمل جسدي وأنا أشاهده عن بُعد؟ فها هي امرأة تحدثني.. استطردت:

- أنا كنت هنا.

عبر الفارق بين البابين، أشارت لي على بلكونتها الواقعة في الجهة الأمامية من المقابر..

- أنت ممكن يكون عندك نزيف داخلي.. أنا جوزي دكتور وما بيقلش لأ لأي حالة إنسانية.. قوم معايا.

أومأت لها رافضًا.. لم يكن ألمي ما منعني فقط بل خجلي.. فلقد عرضت عليّ أن تساعدني ولكنني رفضت.. فكيف أستند عليها ولساني مستندًا على أسناني، عاجزًا عن الحركة.. هزت رأسها يائسة وهمت بالرحيل ولكنها توقفت وقالت:

- أنت جعان.. صح؟

لم أجبهَا ولو بإشارة ومع هذا أحضرت من حقيبتها قطعة بسكويت وعلبة حليب صغيرة.. مدت يدها بهما بعدما انحنت أمامي فرأيت عري صدرها.. العجيب أني لم أشعر بأي رغبة جنسية تجاهها.. من الممكن أن يكون بسبب انشغال جسدي بأوجاعه، أو لنظرة الأمومة التي حملتها عينها لي.. رحلت على الفور واختفت خلف سور المقابر.

لم أقوى على التفكير أمام حاجتي القاسية لسد جوعي.. وفور انتهائي لاحظت المسجل على بعد أمتار.. فمشيت على أربع، غير مكترث لعمري أو نوعي.. فحالة جسدي الهزيلة لم تترك لي الإختيار.

لم يطل المسجل سوء غير بابه الذي خُلع.. واحتاج بضع ضربات خفيفة ليعمل.

سرعان ما داهمني ما تجنبته منذ قليل.. إذا كان ما رأيته أمس مجرد هلاوس فلماذا لم يكترث أحدًا لأمري إلى الآن؟! وإذا ما رأيته كان صحيحًا فكيف لها أن تراني وتحدثني؟!

ليس أمامي غير أن أقبل عرضها.. ما دامت قدمت عرضها بمثل هذه الشجاعة فلابد وأن زوجها رأى الحادث بصحبتها، وهو من أرسلها. إذًا هل سأذهب أم لا؟

(2)

ظللت مستلقيًا مكاني ريثما حلَّقَ آذان العصر حولي.. شعرت أنني بحاجة لأجوبة على الأسئلة التي تؤرقني.. لملمت عزيمتي ونهضت فأصدرت عظامي فرقعات مؤلمة.. شرع جسدي يعرج بشكل أهوج، متكئًا على سور المقابر.. لاحظت وجود مجذوب مفترش الرصيف في نوبة نوم عميقة.

انعطفت وترجلت بمحاذاة السور ريثما عبرت شارع كسرى ثم توقفت بحيث تكون المقابر في ظهري والعمارة أمامي.. كان هناك حارس العقار جالسًا على مقعد خشبي.. بالقرب مني جلست شحاذة على الرصيف.. انتبهت لبائع متجول بحماره ينادي على بضاعته في نهاية الشارع.

ماذا سأقول لحارس العقار؟ وماذا سأقول لزوجها؟

لماذا كل تلك الحيرة؟ سأتغلب على ريبتي من الغرباء وسأذهب لاستوقف أي شخص لمحادثته ولكن ماذا سأقول له؟ هذا غير حاجتي لطبيب.. تذكرت نظراتها الحنونة لي فتشجعت.

نزلت من على الرصيف بصعوبة بالغة قاصدًا بوابة العمارة.. لابد وأن أجد سببًا ما لأعبر من البوابة.. ماذا سأقول؟.. إنني أقترب.

* * *

اقترب البائع ولم يلبث أن زفر حماره، ثم طفق في النهيق.. مررت بجوار حارس العقار وقلت على استحياء وبنبرة مذبذبة:

- السلام عليكم.

لم ينتبه لي.. من المؤكد عدم سماعه بسبب الضوضاء التي يحدثها الحمار.. عدت إلى إلقاء سلامي من جديد.. لم يستجيب أيضًا بل أنه لم يلتفت لي.

عبرت البوابة والشكوك تنهش عقلي وصدري.. شرعت أصعد درجات السلالم مستندًا على الحائط.. كنت أعد الطوابق ريثما وصلت للطابق الرابع وأنا ألهث.. كانت هناك أربعة أبواب.. من فيهم المنزل المقصود؟ أنا لم أعرف حتى اسم زوجها.. تفحصت جميعهم فوجدت أحدهم يحمل اسم "دكتور/ رفعت شبانة" .

لا يوجد باب آخر يحمل هذا اللقب.

ظللت متوجسًا من الطرق على الباب.. برغم قيامي بجمع كل البراهين التي تدفعني لتلك الخطوة بفروسية ولكن مظهري الرث مسح الأتربة عن سطح ريبتي من جديد.

فثيابي قد صبغت بلون الأتربة.. بالإضافة لفردة حذائي اليمنى التي فقدتها أثر الحادث.. تسلل إلى أذني وقع خطوات على درجات السلم.. ماذا سأفعل الآن؟ الوقت ضيق.

وما كدت أن أنصرف بعد أن غلبني الخوف حتى فتح أحدهم الباب من الداخل.

* * *

انشق الباب فتسربت لأنفي رائحة فاكهة.. وإلى أذني موسيقى أغنية يغلب عليها آلة الجيتار.. خرج طفل صغير لا يتخطى عمره ثلاثة سنوات.. كان يلتهم فراولة بنهم.. ظللت أتبادل النظرات معه، ثم سألته:

- ماما موجودة؟
- أه.

انفرجت أساريري فطلبت منه مناداتها.. وهنا سمعت صوتٌ غاضب لرجل يأتي من الداخل:

- أنا مش قلتلك ماتفتحش الباب ده تاني.

لم يلبث أن ظهر الرجل.. إنه زوجها.. لا أخطئه حتى لو كنت أراه على بعد عشرة طوابق.. فشاربه الكثيف يميز وجهه.. التفت الطفل ببراءة وقال لأبيه:

- ماما.

وهنا بحلق الرجل وقال بصوتٍ حادٍ بدا من نبرته فراغ صبره:

- قلتلك ميت مرة ماما فوق في السما.. ماما عند ربنا.

وقعت قذيفة على قلبي.. تذكرت على وقعها مقابر ضحايا الحرب العالمية.. وهنا أتى صوت بدا من تهدجه أنه لامرأة طاعنة في السن:

- بالراحة عليه.. ده عيل صغير.

وقبل أن يغلق الرجل الباب في وجهي، شاهدت شيء يعلو الأريكة المقابلة لمرمى بصري، أكد هزيمتي بل ساوى بي الأرض.. لم يعد هناك مجال للشك.

* * *

خرجت من العمارة متحسرا.. مررت من أمام حارس العمارة وألقيت عليه التحية للمرة اليائسة.. وكالمتوقع كنت بمثابة الهواء له.

كنت مذهولًا لدرجة جعلتني أتعايش في ظرف لحظات مع ما أصبحت عليه.. لا أعرف كيف؟ ولكن هذا ما وجدت نفسي عليه.. ولا أعرف لماذا تذكرت الحكايات التي سمعتها عن قدرة الأطفال على رؤية أجسام غير مرئية.. فكثيرًا ما سمعت عن أطفال تبتسم أثناء نومها لمشاركتها اللهو مع الملائكة.. وكثيرًا ما سمعت عن أطفال تبكي بسبب خطف لعبتهم من قِبل أحدٍ غير مرئيٍ للعيان.. يبدو أنني أصبحت واحدًا ممن لا يظهروا إلا للأطفال.

عاد الحمار لنهيقه مرة أخرى للدرجة التي حاول صاحبه إسكاته بالعصا دون جدوى.. قلت ساخرًا للحمار:

- أعذر صاحبك.. أصله حمار مش فاهم.

ولم يلبث أن توجهت الشحاذة ببصرها لي وقفزت من مضجعها مقبلة عليّ، فنجح الشك في إصابة سهم جديد في صدري.. ماذا يحدث الآن؟! فهذه امرأة تخطت الطفولة بعقدين من الزمن، كيف تشاهدني هي الأخرى؟!

(3)

أقبلت الشحاذة عليّ ولم تلبث أن مرت بجواري غير مكترثة لأمري:

- يلّا.. هي جت عليكي.

كانت الشحاذة تقصد رجلًا خرج توًا من بوابة العمارة.. رمقته بعين صقر فهبطت عليه بمخالب توسلاتها التي لن يفلت جيبه منها.

سرت في امتداد شارع كسرى.. فحقيقة مثل التي توصلت إليها الآن لم يعد في بوصلتها اتجاه للبحر.

ظللت أتعجب من حالي.. فطالما تمنيت الحياة خارج المقابر ولكنني اكتشفت أن بخروجي قد تركتها في الداخل.

فوجئت بمن سكب المياه عليّ.. أخذت أمسح وجهي وشعري وأنا ألهث إثر الصدمة.. كان شاب يلقي بجردل مياه أمام محله.. وتبعها بمسح رصيفه.. قلت مستاءًا:

- كتر خيرك.

ظللت هكذا أترجل في الشوارع.. مذهول بما انتهيت عليه.. مطرقًا في ذهول.. لا أبالي بما يحدث حولي.. ولا يبالي ما يحدث حولي بي.. ولم يبالي

الوقت أيضًا.. فاكتشفت أن الليل قد رافقني منذ ساعات دون انتباهي.

لم أعد أحتمل.. لم أعد أطيق.. صدري يختنق.. يكفي هذا.. وفجأة لم أجد نفسي غير وأنا أصرخ وسط الشارع.

شرعت أتنقل بين الناس أسألهم إذا كانوا يروني أم لا؟ دون جدوى.. صرخت وصرخت حتى ذابت أحبالي وتصدع صدري.. خلعت قميصي وأخذت أركض وسط السيارات.. من أنا؟ أين أنا؟ كيف أنا؟ لقد تحولت لشيءٍ غير قابلٍ للتعريف.

أنا بيت هجرته حتى الحشرات.. أنا نجم مظلم في سماء مجهولة.. أنا جيتار بدون أوتار.. أنا عطر عديم الرائحة.. أنا كتلة هواء لا يعنيها الطقس ولا مكونات الحياة.

فجأة توقفت ألهث وأنا أجهش بالبكاء.. أبكي لنفسي طالما لن يبكي أحدٌ عليّ.. ارتميت على الرصيف وغبت.

* * *

استيقظت عند بزوغ الشمس.. كان الشارع خالٍ من المارة.. وما فائدة المارة الآن؟ من الواضح أن من سيحدثني الآن هم الأرواح فقط.

فلم يراني من ليلة أمس غير المرأة التي لم أعرف اسمها إلى الآن.. امرأة البلكونة.. ظللت أتمناها أنا وصديقي طوال حياتنا ولم أصل إليها إلا

عندما تحولت لصورة مثبتة على الحائط أعلى الأريكة.. وقد لصق عليها شريط أسود.

* * *

كانت تعرف منذ البداية.. لابد وأنها أرسلتني حتى أكتشف حقيقتي الجديدة بنفسي.. ولكن أين هي الآن؟

ترجلت قاصدا المقابر من جديد.. ظللت أتسائل أثناء سيري المعوج.

أليست الروح تصعد عند خالقها؟ إذًا فلماذا لازلت أنا على الأرض؟! هل أنا روح معلقة؟ ولو كنت هكذا، فلماذا إذًا؟ ماذا فعلت ليكون هذا جزائي؟ هل كل هذا لمجرد أنني حلمت بالخروج؟ ولو كنت فعلت ما يضعني في هذا المأزق، ماذا فعلت المرأة هي الأخرى؟ إذا كانت معلقة هي الأخرى إذًا فهناك العديد مثلنا، ولكن كيف أعرفهم؟

لابد وأن أعرفهم حتى أفهم ما أنا عليه.. لابد أن أحدهم يعرف ولكن كيف أعرفهم؟.. لابد أن هناك طريقة ما وإلا لما عرفتني المرأة.. لقد قالت لي بالحرف: "مش عايزاك تستغرب.. كام يوم وهتستوعب اللي حصل" ولكنني لم أفهم.. كانت من البداية تقول لي أنك فقدت جسدك ولكنني لم أفهم.

ماذا كانت تقصد بقولها: "كام يوم وهتستوعب اللي حصل"؟ هل كانت تقصد أن معرفتي لسبب تعلقي وقدرتي على تحديد الأرواح قاصرة على مضي بعض الوقت؟

لم أعد أحتمل أكثر من هذا.

كنت في المقابر أملك جسدًا خاوي، للحياة هاوي، للدنيا غاوي.. والآن وأنا في الدنيا أملك روح شاردة، من القبور محظورة، من الدنيا مبتورة ولكن كل هذا لفقداني جسدي.. مِن غيره أحرم من دخول الدنيا والمقابر.

نعم جسدي.. لابد وأن أبحث عنه ولكن أين؟

* * *

ظللت أطوف في الشوارع باحثًا عن مستشفيات لأضيّق دائرة بحثي عن المشرحة.

لم أصل لشيء غير تعب أوصالي.. كنت أنام على أي رصيف يقابلني.. ألتقط ما يحلو لي من الباعة المتجولين وأكله.. أشرب من الجوامع والحدائق.. ولا أعرف لماذا لم أقضي حاجتي إلى الآن!.. يبدو أنني غير محتاج لهذا في حياتي المعلقة.. تنقلت هكذا إلى أن داهمتني فكرة جيدة.

ظللت أتنقل بين الشوارع إلى أن اخترت ميدانًا مزدحمًا.. مكثت فيه عدة أيام منتظرًا وقت تنفيذ فكرتي ريثما انتبهت إلى صافرة عربة إسعاف.. حان الوقت.. أخذت السيارات تتباعد من أمامها لتخلي الطريق لها.

شرعت أركض حتى ألحقها ولكنها سبقتني بمسافة كبيرة فتوقفت ألهث يائسًا، ثم رميت بصري لمعرفة طريقها ولكن ما الفائدة؟ فلن ألحقها.. من أين جائتني تلك الفكرة الفاشلة؟.. كيف تصورت أنني سأتتبع عربة إسعاف حتى وصولها لأقرب مستشفى؟ هل كنت أعتقد أن الأرواح تطير؟ نعم كنت أعتقد هذا.. وما العيب؟ الكبار من دسوا في رأسي هذا الإعتقاد.. "يفعلها الكبار ويقع فيها الصغار".

ماذا سأفعل الآن.. كيف سأجد جسدي؟

وهنا تحركت أفكاري بمجرد توقف عربة نصف نقل أمامي.. فور أن تحركت قفزت وتعلقت بصندوقها من الخلف.

كنت متحفزًا بشدة لِلّحاق بسيارة الإسعاف.. أنظر من وراء الصندوق على الطريق فتستقبل وجهي نسائم الهواء.. لم أركب سيارة إلا في طفولتي.. انتبهت بغتة أن عربتي قد تخطت الشارع الذي اختفت فيه سيارة الإسعاف.. كيف أنزل الآن؟ فالسيارة مسرعة بشكل طائش.. هل أقفز؟ نعم.. فأنا روح لا أعتقد أن هناك شيء سيصيبني.. وماذا سيصيبني أكثر من موتي؟

فور أن عزمت القفز ترددت مرة أخرى.. يبدو أنني فقدت جسدي فقط أما الخوف فظل معششًا في قلبي.

بعد مسافة كبيرة توقفت السيارة في إشارة مرور فقفزت، ورجعت في أثر الطريق إلى أن وصلت للشارع المقصود.. بالطبع لم أجد السيارة..

فمن المؤكد أنها قد تنقلت في أرجاء المدينة ونقلت جميع المرضى إلى أن رست في جراچها وأنا لازلت هنا أبحث عن سراب.

جلست بجوار عمود.. كان الشارع يفتقر للسيارات.. رميت بصري في الشارع الضيق المقابل لي.. كانت هناك عمارة بيضاء كبيرة تسد نهايته.. لاحظت وجود فتاة شقراء تتحرك في أحد النوافذ.. تذكرت على الفور أيامي في المقابر وكيف كنت أقف منتظرًا امرأة البلكونة أنا وصديقي.

شعرت بحرقة في باطن قدمي الحافية، فتفحصتها.. كانت قد أصيبت ببضع جروح سطحية.. لابد وأن أبحث في القمامة عن أي حذاء هالك أنتعله.

رميت نظري مرة أخرى في الشارع الضيق.. وهنا وقعت الصدمة كحجر ضخم على رأسي.. كيف هذا؟ هل كنت أهزي؟ غير معقول! إن ما شاهدته الآن كان أشد غرابة من كل ما مررت به من يوم الحادث!.. فركت عيني لأتحقق ولكن كانت الصدمة لازالت هناك.. هل هذا معقول!

ترجلت بضعة أمتار محاولًا فهم ما حدث الآن.. العمارة قد اختفت.. نعم.. العمارة التي كانت تسد نهاية الشارع ولكن كيف؟!

* * *

هل تلك التغيرات هي ما قصدتها المرأة عندما قالت: "كام يوم وهتستوعب اللي حصل"؟

ما أعلمه أو ما كنت أعتقده أنني من سأختفي لا ما حولي.. لا أفهم.. شعور بالضيق يعتريني كلما تقدمت.. هل أوشكت نهايتي؟ فلماذا أقلق من النهاية؟ أنا بالفعل منتهي.. يبدو أن فكرة تعلق روحي قد أعطتني شيئًا من الأمل في أنني شيء استثنائي.

اقتحمت عقلي فكرة غريبة.. لابد وأن ما يحدث بعد الموت هو العكس.. الأشياء هي ما تختفي من حول الروح ريثما تصبح وحيدة فتنتقل إلى مثواها.. لا أعرف.. لا أعرف.. لم أعد قادرًا على التفكير.

بانتهاء الشارع وجدت نفسي أمام حديقة.. قبل أن أتخطاها وجدت العمارة تتحرك بعيدًا.. بل بالأصح وجدت السفينة تتحرك.. لقد كانت سفينة تمر بقناة السويس.. سخرت من نفسي ومن كم التخيلات التي طفت بها حول هذا الإعتقاد.

جلست ما يقارب الساعة أتأمل "قناة السويس" إلى أن وقعت عيني على "حنطور" مليء بالسائحين.. فركضت للحاق به وقفزت لأركب في الخلف.. تحديدًا على العصا الواقعة بين العجلتين الخلفيتين.. كانت فرصة للبحث بتمهل عن مستشفيات.

طفتُ كثيرًا ريثما وقعت عيني على مستشفى فنزلت على الفور.. وشرعت أطوف حول المستشفى لألاحظ أن المنطقة بالكامل تجمع

عدة مستشفيات.. إذًا لقد كبر محيط دائرة البحث.. أي مستشفى أقصدها؟

ترجلت في الشارع المقابل لـ "مستشفى بورسعيد العام".. كان الوقت ليلًا وأنا أسير تحت ضوء العمود الخافت.. فاقتربت من بوابة حديد صدئة.. لم أعرف لماذا شعرت بوجود المشرحة هنا.. سمعت وقع خطوات خلفي.. لم أكترث ولكن كانت الخطوات تقترب مني ريثما شاهدت الظل يتوقف خلفي.

سيتخطاني الآن هذا الشخص.. ولم يلبث أن دق إصبع على كتفي.. شهقت وقفزت هلعًا.

مَن هذا أيضًا؟

(4)

تجدد، تفتت، تشتت قلبي، بمجرد سماعي ضحكة أنثوية.. التفتت خلفي لأرى من لم يخطر على بالي مشاهدته من جديد.

كانت امرأة البلكونة.. كانت أجمل بكثير مقارنة بالمرة الأولى التي تحدثنا فيها.. عيناها الزيتونيتان المكحلتان.. وجنتاها المحمرتان.. شعرها الكستنائي اللاهث وراء خِصْرِهَا.. كل هذا جعل قلبي كالسمكة التي قفزت في المياه بعدما تم اصطيادها.. قالت وهي لازالت تضحك:

- إنت قلبك خفيف قوي.

ابتسمت وأنا أسمع دقات قلبي.. استطردت :

- أنت إيه اللي جابك هنا؟

أشرت لها بحيرة..

- أيوا ده معناه إيه؟!

فابتسمت محاولًا إخفاء عقدة لساني.. فهزت رأسها بيأس ولم تلبث أن رفعت يديها وأخذت تصنع إشارات في الهواء.. بحلقت بعدم فهم وكدت أشعر أن فمي سيتمدد للأمام وأذني سيكبر حجمها ولا ينقصني غير أن أنهق كالحمير.

رمقتني أملًا في استجابة فالتفتت حولي مشتتًا ثم قلت على استحياء:

- مش فاهم.

قهقهت وقالت:

- الله!.. طب ما أنت بتتكلم زينا أهه.. أمال مكنتش بترد ليه؟ أنا شايفاك بقيت كويس.
- الحمدلله.
- أنت اسمك إيه؟
- الباروني.
- لأ ماهو مش أول ما تنطق تشتغلني.
- أنا إسمي كده.

قلتها بضيق، فقالت برقة:

- طب براحة عليَّ.. ده أنت طلعت عصبي كمان.

ابتسمت، تفحصتني في نظرة سريعة:

- على فكرة أنا سمعت الاسم ده قبل كده.. ماما الله يرحمها..
- الله يرحمها.
- حكتلي عن عيلة كبيرة كان اسمها الباروني بس ما بقاش حد يسمع عنهم.. تقريبًا هاجروا.. مش عارفة.. أنا ما اهتمتش وقتها.

صمتت..لاحظت محاولتها لصياغة ما تنوي قوله:

- متهيئلي ده تشابه أسماء.. صح ولا أنا غلطانة؟

اعتراني شعور بالحاجة لستر ثيابي..لقد خجلت من ذكر علاقتي باسم "الباروني".. قلت بنبرة يشوبها عدم الصدق:

- أه.. تشابه أسماء.
- أنا إسمي داليا.

مدت يدها.. تسمرت في الأرض لا أعرف ما عليّ فعله.. فبدت عليها الدهشة قائلة:

- هتعلق إيدي كده كتير؟

فقربت يدي بتردد، فقبضت عليها وجذبَتها نحوها وهي تحركها بألفة:

- تشرفنا سيادتك.. تشرفنا.

بمجرد أن تراخت أصابعها جذبت يدي وأنا أزدرد ريقي.. شعرت أنها لم توضع كفها الرطب في كفي، بل وضعت سهمًا مشتعلًا بصدري.. اعترتني القشعريرة من هذا الملمس الجديد.. قالت باستغراب:

- مالك اتخشبت كده ليه؟! باروني.. باروني.

انتبهت لندائها:

- أيوا؟
- عبروني.

انفجرت ضحكاتها واستطردت:

- ده يظهر الحكاية مش هتبقى يومين بس.. شكلها هتطول.. أنا من الأول قلت أنك حالة فريدة من نوعها.

يبدو أن ظنوني في محلها.. فهي تعلم ما أنا عليه جيدًا، لذلك روحها فقط من ظهرت لي إلى الآن.. صمتت قليلًا وقالت وهي تلوح:

- طيب.. أنا شايفة مالوش لازمة في وقوفنا هنا.

لماذا قررت الإنصراف بعدما أخبرتني بطول المدة.. لابد أنها تعرف أن وقتي لم يحن بعد.. نعم هذا صحيح.. فلقد كانت تلوح ناحية المستشفى.. خطت عدة أمتار، ثم التفتت لي قائلة:

- إيه مش هتيجي ولا إيه؟!

* * *

كنت بجوارها غير مصدق تسكعي مع النجم الذي طالما تمنيته من السماء.. كان وقع كعب حذائها ينخر في حائط صدري.. أثناء عبورنا الشارع وقعت عيني على بائع متجوّل.. فرجعت والتقطت حبتين يوسفي من عربته، ثم لحقت بها.. عزمت عليها بحبة فرفضت مدعية الشبع.. يبدو أنها تقززت من أكلها بسبب إمساكي بها.

فور أن صعدت بي على "الكورنيش" تسللت رائحة اليود إلى أنفي.. سألتني:

- ليه ما طلعتش الشقة؟
- عرفتي منين أني ماطلعتش؟
- يعني.. ماشوفتش أي حاجة تدل أنه عالجك.
- بس أنا طلعت.

توقفت فجأة وقالت:

- بجد!.. وحصل إيه؟

صمت لا أعرف كيف أقص ما حدث؟.. استطردت وهي تهز رأسها متفهمة:

- عرفت.. صح؟

هززت رأسي إيجابًا.. رافقنا الصمت ريثما توقفت وقالت:

- وصلنا.

قالتها بطريقة كأنها تطلب رحيلي.. تأملت ما حولي.. لم يكن هناك غير امتداد "الكورنيش" والبحر وبضعة بيوت خلفي.. قلت:

- وصلنا؟
- أه.. مش انت عايش ورا المصيف؟

- المصيف؟

مكثت لبرهة إلى أن فهمت أن تلك البيوت هي "مصيف ضباط الشرطة" الماثل أمام المقابر.. كنت أرى المصيف للمرة الأولى من جهة البحر.. قلت:

- عرفتي منين أني كنت عايش في"الجبّانة"؟!
- كنت؟ أنت مش ناوي ترجع؟
- مش باين.

هزت رأسها مستاءة.. قالت وهي تهم بالرحيل:

- طيب أنا ماشية.
- مش هشوفك تاني؟

لم أعرف كيف تجرأت ونطقت هذا السؤال؟ وقفت ونظرت لي بابتسامة لؤم.. نظرت في الخلاء لوهلة.. يبدو أنها تقلّب فكرة في وعاء رأسها.. قالت بصوت خافت:

- عايز تشوفني تاني؟

صفعني الخجل على وجهي فأومأت بالإيجاب.. قالت بمناغاة:

- كل اللي عليك تفكر فيّ هتلاقيني واقفة قدامك.
- أفكر بس؟ يعني مش محتاج مصباح أمسحه.
- الله! ده أنت بتعرف تهزر كمان!

- طب خلاص.
- خلاص إيه؟
- نمشي مع بعض.. مش أنت عايشة هنا برضه؟

أشرت تجاه منزلها المستتر خلف المصيف.. تقلصت ملامحها وقالت:

- أنت هتخليني أقفل من ناحيتك ليه؟
- ليه كل ده عشان..
- بلاش تستعبط.. يعني أنت مش فارق معاك اللي عرفته من الدكتور؟
- فارق.

ابتسمت ونظرت على البحر المعتم وتمتمت:

- رضينا بالهم والهم مش راضي بينا.

نظرت لي بتقزز وانصرفت.. سرت في إثرها وأنا أقول بنبرة مستعطفة:

- طب ليه كده؟
- مش أنت بتقول إن اللي عرفته فارق معاك؟
- أه فارق.
- أنت بتعيدها؟!
- فارق عشان اللي زيك بالنسبة ليّ فرصة.
- قصدك إيه؟

قالتها وهي تتوقف.. فقلت:

- أنا ما صدقت حد ينطق معايا بكلمة.
- فما بالك لما اللي تكلمك واحدة زي القمر زيي.

يبدو أن وقع جرئتها الصادم لي انعكس على وجهي.. فقهقهت من قلبها حتى دمعت عيناها.. فأخذت تتنفس بعمق حتى تتوقف عن الضحك.. قالت متلعثمة:

- منك لله.. الميكياج هيبوظ.

قلت في نفسي: "ميكياج إيه ياولية! أنت مش بتتهدي دنيا ولا آخرة!".. قالت وهي تلتقط أنفاسها:

- ما تخدش فكرة عني غلط.. أنا مش مغرورة.
- مين قال كده!
- بتتريق حضرتك.. ماشي.. دي اسمها ثقة بالنفس.

قالتها بمناغاة لطيفة.. انعطفنا من جانب المصيف إلى شارع 23 يوليو.. رفضت أن تعبر الشارع وفضلت أن تقف بالقرب من البوابة الرئيسية للمصيف.. رمت بصرها على نافذة منزلها المتلصص من فوق سطح المقابر وبدا عليها الحزن.. سألتني بلهفة:

- شوفت عمر؟
- عمر؟

- ابني.
- أه.
- يعني كلمته؟
- هو اللي فتحلي الباب.

دمعت عيناها وهي تبتسم.. قالت:

- تعرف.. عمر واخد مني الطبع ده.. مش بيطيق يقعد والباب مقفول.. أنا علطول كنت بسيب الباب مفتوح.. ورفعت كان يتخانق معايا علطول بسبب الحكاية دي.
- أكيد عشان محدش يشوفك من الجيران.
- كان بيغير بطريقة تخنق.
- لأ مالوش حق.

قهقهت، ثم قالت:

- على فكرة.. أنت أحلى بكتير وإنت ساكت.

ضحكت .. فمدت يدها..

- أشوفك على خير.
- إنتِ مستعجلة على إيه؟
- أصل خلاص هنقعد نعمل إيه؟
- تعالي هقعدك في مكان هيعجبك قوي.

نظرت لي باستفهام فأشرت لها على رصيف المقابر بجوار الباب الخلفي.. فقالت:

- حرام عليك.
- إيه بتخافي من "الجبّانة"؟! ده إنتِ كان وشك في وشها كل يوم.
- أنا قصدي على المكان ده بالذات.
- ليه ماله المكان ده؟

صمتت قليلا ولاحظت تدفق الدموع في عينها.. قالت بنبرة متهدجة وهي تشير على الباب الخلفي للمقابر:

- عشان هنا كانت نهاية الدنيا بالنسبة لي.. كفاية كده.. أنا ماشية.

هل ما فهمته صحيح؟.. مكثت هنيهة مصدومًا مما قالته.. هرولت ورائها وأنا أسألها من جديد:

- مش فاهم .. أنت قصدك أن..
- أيوا ياباروني.. أيوا.. موتي كان هنا.. وكفاية كده بقى مش عايزة أفتكر.

انسابت دموعها السوداء على وجنتيها.. أخرجت مناديل ورقية من حقيبتها لتجفف دموعها.. بالرغم من وضوح الأمر الآن إلا أنني كنت في حاجة للتأكد أكثر.. كنت كالذي يبحث عن أي ذريعة حتى يستريح.. فسألتها على استحياء:

- أنتِ.. اللي.. العربيات اللي ..

تجمهرت جحافل من الغضب في وجهها.. قالت بنبرة تحمل الغيظ والمرارة:

- على فكرة أنت مش سهل ولا غلبان زي ما أنت بتحاول توصلي.. أنا مكنتش أعرف أنك كده.

قالتها ورحلت باكية، في حين جلست على الأرض مذهولًا.

(5)

إذًا داليا كانت واحدة من زبائني في "موارِبة الباب".. وكانت واحدة ممن فقدن الوعي بعد صرخة الفزع.. بعدما كنت أخرج من ظلام المقابر.. وياللأسف كنت أحتفل كما لو كنت أجدع جدع.

أتنقل في الشوارع غير مصدق ما فعلته بها.. أنا من فصلت جسدها عن روحها.. عن قصدٍ أو غير، لا يهم.. هكذا في لحظة قتلت نفس بسكتة قلبية.. ومن خيبتي ظننت أنها فقدت الوعي.. وأنا في الحقيقة من كتبت لها النعي.

لماذا أكدر نفسي بهذا الشكل؟ فكيف كنت أعرف أن قلبها لا يتحمل الهلع؟ هل كنت أضرب الودع؟

ما الذي أقوله لنفسي؟ هل لي عين أن أبرر فعلتي؟ لقد حرمت نفس من دنيتها.. من زوجها.. من ابنها.. من عائلتها.. نعم لقد قتلت نفسًا دون وجه حق.. كيف دون وجه حق؟ فهي تستحق.. نعم تستحق.. فماذا كانت تفعل ليلتها؟ هل كانت تحفظ جزءًا جديدًا من القرآن؟! أم كانت تنتظر خروج ابنها من باب المقابر بعد انتهاء يومه الدراسي منتصف الليل؟!

إنها ساقطة.. تجمع ما استطاعت من الرجال بلافتة.. فكيف لي أن أحاسب ضميري؟.. مهما أخطأت في حياتي لم أصل لهذه الدرجة من الإنحطاط.. أنا لا أشبهها.. ولذلك لابد أن أنساها وأدخر طاقتي لنفسي.

الآن سأعود للبحث عن جسدي.

* * *

طُفْتُ في المنطقة التي تجمع أغلب المستشفيات.. وقعت عيني على مستشفى "بورسعيد العام" مرة أخرى.. فعزمت النية للدخول وبمجرد اقترابي انتبهت لسيدة تسأل بنحيب عامل بالمستشفى عن الأسماء المتواجدة في المشرحة.. فأكد لها عدم وجود نجلها؛ لأن حاليًا لا يتواجد في المشرحة جثث لشباب.. فالمتواجد إما طاعن في السن أو طفل.. وجثة واحدة فقط في عمر الشباب لأنثى.. هكذا تخرج تلك المستشفى من حساباتي.

أكملت سعيي في البحث عن مستشفى أخرى.. وهنا طاردتني صورة داليا من جديد.. لقد فاتتني أسئلة عديدة وشديدة الأهمية.

لماذا اختارتني داليا من بين جميع الأرواح؟ هل تسعى للانتقام مني؟ وهل لها القدرة على فعل أي شيء خيرًا كان أو شرًا وهي مجرد روح؟؟ وكيف تنتقم مني في هذا العالم المعلق؟ ولماذا روحي معلقة؟ هل تعلق روحي له علاقة بما فعلته بها؟ إذًا فلماذا روحها معلقة هي الأخرى؟

هل السماء تعطيني فرصة جديدة للتكفير عن ما فعلته؟ أصدق هذا الشعور أكثر.

هل أصدق توبتي أم أحن للعودة لداليا؟ ..

فجأة.. تخشبت مكاني غير مصدق ما أراه أمامي.. ما قالته داليا كان صوابًا بالفعل.

* * *

من الواضح أن داليا لم تحب الصدفة التي جمعتنا؛ لأن وجهها قد تربد بمجرد رؤيتي.. وبرغم هذا توقفت ولم تكمل طريقها.. وجدت أن صمتنا سوف يطول عمره فبادرت الآن بالحديث:

- إزيك.
- دي أعتبرها صدفة؟!
- لأ.

رمقتني باستفهام.. استطردت بابتسامة:

- أصل أنا كنت لسه بفكر فيكي.

هزت رأسها مستاءة، وسألتني:

- إنت عايز إيه؟
- أنا قلتلك ليلة امبارح.

- مش مشكلتي أنك مش لاقي حد يكلمك.. عمومًا لو دورت مش هتغلب.. اللي زيك مرمي على الأرصفة.
- طب وإنتِ؟
- أنا إيه؟

لم أجد ما أقوله.. التفتت داليا حولها، ثم قالت لي باستخفاف:

- إنت ليه محسسني أني محتاجالك؟! طب اسمع بقى...
- أنا عارف أني زودتها امبارح بس والله..
- مش عايزة أتكلم في الموضوع ده.
- أيوا.. بس أنا..
- بقولك مش عايزة أتكلم في الموضوع ده.. ويكون أحسن لو شوفتني مرة تانية إعمل نفسك ما تعرفنيش.. وليه تعمل؟.. أنا فعلًا ما أعرفكش.

قالتها وانصرفت.. لم يقلقني في رحيلها ضياع فرصتي في التكفير عن ذنبي.. فأنا لست متأكدًا من هذا الإعتقاد بعد.. بل شعرت بالضيق لمجرد عدم رؤيتها مرة أخرى.. فصحت قبل أن تلفظها عيني:

- أنا اللي زيي محدش بيحتاجه عشان محدش شايفه.. أنا اللي زيي مش عايز غير إنك تشوفيه.. أنا مش هفضل دنيا وآخرة مش متشاف.. أنا لو شوفتك هقف وأكلمك.. عشانك تعرفيني.. تعرفيني.

اختفت داليا من أمامي بمجرد انعطافها لشارع جانبي.. جلست على الرصيف منهكًا من الصياح وغمغمت متعجبًا:

- ولما أعمل نفسي ما عرفكيش، مين هيعرفني؟!

* * *

تربعت على رصيف "مصيف ضباط الشرطة" أنظر على بوابة المقابر رقم (1).. كان المجذوب لازال مفترشًا الرصيف أمام سور المقابر.. فردت قدمي اليمنى الحافية أمام مرمى بصري أتفحصها من جديد.. مرّ عدة أشخاص من الشارع إلى أن توقف أمامي حذاء نسائي.. صعدت بنظري لأعلى فوجدتها أمامي.. قالت داليا بابتسامة وهي تلهث:

- إنت سريع قوي.. لحقتك بالعافية.

انتصبت في مواجهتها والإبتسامة تتشبث في قسماتي.. قالت لي:

- أنت للدرجة دي فارق معاك تشوفني تاني؟

تدهشني بجرئتها مرة أخرى.. أشعر أنها تكمل الناقص فيَّ .. قالت:

- إنت هترجع ماتنطقش تاني.. لا أنا ماشية.
- لأ استني.. استني.. هنطق.
- ناس ماتجيش غير بالعين الحمرا.

ابتسمت.. كم هي طيبة القلب.. عندما أراها على هذه الحالة أندهش كيف كدت أن أخسرها أكثر من مرة.. لماذا هناك أوقات يحدث بيننا سوء تفاهم؟ لماذا لا أفهمها؟ لقد توقعت رحيلها للأبد ومع ذلك رجعت! لقد ظننت سعيّها للانتقام مني وهي في الحقيقة تحاول مساعدتي.. لازال أمامي الكثير لأعرفه.. قالت وهي تضع حقيبتها أعلى رأسها:

- الشمس حامية قوي.
- طب تحبي..
- لا لا لا.. أنا همشي دلوقت.. هتبقى فين بليل؟
- مش هتحرك من هنا.

ضحكت وقالت وهي ترحل:

- والله أنت الخسران لو جيت مالقيتكش.

انصرفت.. كيف أُضَيِّعُ الوقت ريثما تأتي؟.. ياليت الوقت كان ثوبًا مشغول من الصوف، كان بسحب خيط واحد، جردته من وظيفته.

أثناء حيرتي في كيفية ضياع الوقت داهمتني أفكار مريبة..

لماذا عادت داليا من جديد؟

هل صدقت فكرة رجوعها لتأثير كلماتي عليها؟

لازالت هناك حقائق غائبة عني.. لازلت لا أعرف لماذا روحي معلقة؟ لماذا لم أتعثر في أرواح معلقة غير داليا؟

لماذا داليا بالتحديد هي من تظهر لي وتحاول مساعدتي؟

هل تحاول مساعدتي بالفعل أم تريد الإنتقام لفعلتي؟

ولماذا إلى الآن تتحاشى الحديث عنه؟

إذًا فهي لا تسعى لمساعدتي..

ومن الواضح إلمامها جيدًا بحالتها ولا يؤرقها أي حيرة حول تعلقها..

إذًا فلماذا تسعى لمرافقتي وهي لا تحتاجني؟

هناك شعور يجوب في صدري يحذرني من مرافقتها.. هو لا يحذرني فقط بل يدفعني للرحيل عن هنا.

تحركت عدة خطوات ناويًا الرحيل ولكن ما أوقفني الآن كان له وقع السحر عليّ.

كان المجذوب الجالس بجوار باب المقابر رقم (1) يلوّح.. هو لا يلوح عشوائيًا بل يلوح لي!.. كيف؟!.. تلفتُّ حولي فلم أجد غيري.. إنه مخبول ولا يدري ما يفعله.. اتجهت يسارًا فسمعته ينادي بكلمات غير مفهومة.. فنظرت له مرة أخرى فوجدته يشير لي.. هناك شيء غير واضح.

هرولت يمينا.. فمن الممكن أنه يشير للهواء لا غير ولكنه انحرف معي وهو يناديني.. عبرت الشارع لأتوقف على الرصيف الفاصل بين الاتجاهين.. مكثت قليلا، ثم أشرت على نفسي وأنا أصيح:

- أنت بتشاور لي أنا؟!

هز رأسه بالإيجاب وهو يشير لي.. التفتت حولي مرة أخرى.. ونزلت على الأسفلت متجها له وهو لا زال يناديني.. صوت ضربات قلبي يتضح في أذني كلما اقتربت.. هناك شعور يدفعني للهروب وشعور آخر يجذبني له.

(6)

توقفت بمجرد صعودي على الرصيف.. بحلقت فيه برهبة شديدة في حين بادلني بنظرة واثقة.. مكثنا لهنيهة قبل أن يقول:

- خايف من إيه؟.. قرب.

اقتربت بخطوات حذرة ريثما توقفت أمامه سائلًا:

- أنت شايفني؟
- أنا حاطط عيني عليك من ساعة الحادثة.

قالها وربت أمامه على الأرض يدعوني للجلوس.. يبدو أنه لاحظ خوفي الشديد من تلك الخطوة فقال بنبرة تدعو للإطمئنان:

- اقعد أنا مش مجنون.
- أصل شكلك يعني..

قهقه حتى سال لعابه المقزز وقال:

- وشكلي وشكلك إيه؟! يابني وأنت باصصلي كده زي ما أكون باصص في مراية.

يبدو أن مظهري أصبح مقززًا للغاية.. تربعت أمامه.. وهنا وضع يده على فخذي فانتفضت هلعًا.. فضحك تلك المرة ضحكة جافة بدون لعاب.. قال بصوت رخيم ودود:

- كلمتين هتسمعهم من واحد أد أبوك.. عايزك تحطهم حلقة في ودنك وما ترمهمش البحر.

بحلق فيَّ كما لو كان يتأكد من جدية استماعي واستطرد:

- انسى الجثة اللي معاك.

أصابت كلمته صدري كالسهم.. وبرغم من قسوة مفاجئتها إلا أن شعور الرهبة نزف نتيجة لوقعها.. ابتسم عندما شاهد تقلص وجهي.. أكمل حديثه:

- أكيد مستغرب بس لما تعرف الراجل اللي قدامك ده قضى حياته في إيه مش هتستغرب إني عرفت.
- الصراحة.. أنا مش فاهم حاجة.
- اللي قدامك ده كان له جثة برضه بيريل وراها.

قالها الرجل وهو يشير على نفسه بحسرة.. وهنا.. تبخر اندهاشي.. فها هي روح أخرى ماثلة أمامي.. لم أتمالك نفسي من الضحك.. فلقد تراميت على الأرض من فرط الضحك.. وبانتهائي شرعت أعتذر له وأنا ألتقط أنفاسي.. لا أعلم سبب ضحكي..

هل بسبب فرحتي لعثوري على روح جديدة تساعدني في إيجاد تفسير لما أنا عليه؟ أم شعوري بأنني لست وحدي في كارثة العالم المعلق؟..لا أعلم..

قال لي بنبرة غاضبة:

- أنت مش مصدقني؟
- مش قصدي.. أنا بضحك على حاجة تانية.
- أنت ليه فاكر نفسك غيري؟!.. من ساعة ما كلمتك وأنت بتبصلي بطريقة غريبة كده.. يابني أنا وأنت واحد.

الكارثة أننا نشبه بعض في قذارتنا فقط..

لماذا هو أيضًا على تلك الحالة؟ هل بعد موتنا ستكون هذه الهيئة ما سنبعث عليها؟ ولو كان صحيحًا لماذا داليا لازالت محتفظة بجمالها ونظافتها؟! يبدو أن الرجال فقط من يعلقون على هذه الحالة..

قال وهو يمد يده لي بالتحية:

- اسم الكريم إيه؟
- الباروني.
- وأنا عمك نوفل.. بص يا باروني.. أنا كان معايا جثة تشيّب.. زحفتني وراها بلاد لغاية ما بقت ملكي.. مش زي الجثة اللي معاك.
- مالها؟!.. ده أنا دايخ بقالي كام يوم وراها مش عارف أوصلها.

ضحك ساخرًا وأردف:

- كام يوم!.. شايفك يعني بتقولها وأنت بتشكي.
- مش فاهم.
- يابني أنا لفيت كعب داير ورا الحتة اللي معايا يجي بتاع سنة.
- سنة!
- ويمكن كسرت السنة كمان.

نظرت له بتعجب فهز رأسه مؤكدًا:

- أيوا.. زي ما أنا شايفك قصادي كده.. ده أنا كنت بريّل وراها.

قلت في نفسي:"لساك بتريل ياعم نوفل".. تنهد نوفل باستياء:

- كانت أيام.
- الله!.. طب وما دام وصلتلها إيه اللي مقعدك هنا؟!
- أنا كنت عامل زيك كده.. كنت فاكر أن كل مشاكلي هتخلص بس ده اللي وصلتله بعد كل ده.

كان يشير لنفسه بحسرة.. فضربت كفًا على كفٍ قائلًا:

- طب أنا عايز أطلع من اللي أنا فيه ده.. أعمل إيه؟
- ما هو عشان كده بقلك انساها.. السكة دي مش بترفع دي بتضيّع.
- طب إشمعنى إحنا اللي كده.

أشار نوفل إلى السماء قائلًا:

- له في ذلك حكم.
- إزاي يعني؟

صحت بغضب شديد.. فقال نوفل:

- استغفر ربك يابني وماتعترضش.. حرام.
- يعني كمان ما أعترضش!

كان طلب نوفل كالذي يطلب عدم الصراخ من شخص تأكله ألهبة النار.. نظرت عاليًا في السماء وأنا أصيح:

- إشمعنى أنا؟.. اخترتني أنا ليه؟ علقتني دنيا وكمان آخرة.. أمال هعيش إمتى؟

هرول نوفل خلفي ووضع يده على كتفي وهو يقول:

- يابني استغفر ربك.. حرام كده..
- إشمعنى أنا؟
- ربك يرفع من يشاء ويهبط من يشاء.
- مش دنيا وآخرة.. مش دنيا وآخرة.
- يابني حرام اللي بتعمله ده.
- واللي بيحصل فيّ ده مش حرام!

قلتها ودفعته بعيدًا عني فجائني صوته:

- انسى اللي معاك.. وعيش العيشة اللي ربك كتبهالك.
- وهي دي عيشة.. أنت صدقت أنك عايش؟

أخذت أصرخ وأصرخ فلم ينتهي لهيب النار مني بعد.. كنت ألتقط الحجارة وأهشم بها اللافتات الدعائية المثبتة على الرصيف الفاصل.. فجذبني نوفل واحتضنني وهو يربت على ظهري.. شرعت أبكي وأهمهم بنحيب ووجهي مدسوس في صدره.. أخرجت وجهي وأنا أتلعثم بصوت مبحوح:

- خلاص مش قادر ياعم نوفل.. مش قادر.
- استغفر ربك وهتبقى كويس.
- مش قادر ياعم نوفل.. ريحتك معفنة.

قلتها ودفعته بعيدًا عني.. اكفهر وجهه وهمّ بالإنصراف فأمسكت به وأنا أسترضيه بصوتٍ باكٍ تحاول الضحكات اللحاق بأطرافه.. فدفعني وانصرف.. تراجعت بخطوات مترنحة ريثما تعثرت بشيءٍ صلب فتهاوت روحي المتهالكة.

ها هو أملي الوحيد في الصعود للسماء قد اندثر.. ما هو هدفي الآن؟

(7)

مصباح العمود الكهربائي هو ما استقبل عيني بمجرد أن استيقظت.. فحجبت ضوءه بيدي في حالة كسوف طارئة.. يبدو أنني غبت بسبب إرهاقي من الصراخ والبكاء الممزوج بالضحك على عم نوفل.. ولم يلبث أن فزعني صوت سيارة مسرعة.. نهضت لأجد نفسي على الرصيف الفاصل بين الإتجاهين.

انتقلت لرصيف "مصيف ضباط الشرطة" واستلقيت إلى أن خفّ ثقل رأسي.. بعدها شرعت أترجل ذهابًا وإيابًا تضييعًا للوقت.. فلقد احتلني شغف في رؤية داليا.. يبدو أن ما علمته من عم نوفل قد عصف بالريبة تجاه داليا.. مادمت لا أملك حيلة في صعودي للسماء فسوف أعيش.. نعم سأعيش حتى لو كنت ميتًا.

طالت خيوط الوقت.. وأخذ اليأس ينسج منها أعشاش في أركان جدراني.. يبدو أنها ستخلف الوعد.. إذًا فلماذا عشمتني بالأمل وجعلتني أطلي حوائطي.

تفقدت الطريق فلمحت من يدنو.. توقفت أدقق النظر ريثما تحققت.. كانت هي داليا.. جائت لتكشف عن الأشجار والأنوار والسماء في خلفيتها.. توقفت أمامي وجذبت ابتسامتها ابتسامتي.. قالت بمناغاة:

- أنا مش قلتلك إنت الخسران لو جيت مالقيتكش؟

- ما أنا جيت.. أنا مش ظاهر قدامك ولا إيه؟!

ضحكت حاجبة أسنانها بكفها، ثم مدت يدها لي وقالت:

- طب تعالى.
- على فين؟
- هخليك تشوف اللي ماشوفتوش قبل كده.

* * *

نصحتني داليا بتقضية الليلة في مكان لم يخطر لي على بال.. فلقد تركت شاطئ البحر بامتداده وأشارت لي على بيتٍ مهجورٍ في مقابلة البحر.. كان البيت من طابقين.. جزء منه منهار.. قلت لها بدهشة:

- ده اللي عمري ما شوفته!
- تشوفه من بره حاجة ومن جوه حاجة تانية.

هكذا قالتها بشغف طفولي وهي تسوقني إليه.. توقفنا أمامه.. لا أدري لِمَ لم يغمرني الخوف برؤيته؟ فزيارة بيت كهذا في ظلام الليل وفي منطقة فقيرة من البشر لابد وأن يغرز القلق والرهبة في القلب ولكن ما أدهشني بالفعل هو ما طلبته داليا توًا:

- يلّا بينا.
- يلّا بينا على فين؟
- جوه البيت.

- بتهزري؟
- أنت بتخاف ولا إيه؟
- لأ ولا خايف ولا حاجة.
- أمال إيه؟.. لأ ما هو مش معقول تكون عايش عمرك كله مع الميتين وتخاف من بيت زي ده!
- ما أنا قلتلك مش خايف.
- هترجع تتعصب تاني؟

قالتها بدلال أشعل كياني.. فابتسمت وقلت:

- أصل غريبة إن واحدة..
- واحدة ما تخافش من بيت مهجور!
- لأ.. وكمان عايزة تدخله في عز الليل.
- تعالى بس.

أمسكت بمعصمي وجرتني خلفها كطفل.. كان ظلام الشاطئ يشوبه نور متسلل من المباني القريبة ولكن بالنسبة للبيت كان الظلام خام.. ولهذا تعجبت من تنقل داليا فيه بيسر.. قالت لي أثناء صعودنا على درجات سلم متهالك:

- من ساعة اللي حصل وأنا على طول هنا.. من وقت ما عينيا وقعت عليه ومش عارفة جالي قلب إزاي أدخله!.. حاسب.

تعثرت في درجة معطوبة وكدت أتهاوى..

- وقتها مكنتش عايزة أشوف جنس بني آدم بس لما دخلته حسيت براحة كبيرة قوي.. حسيت أنه بيتي.
- للدرجادي؟!
- دلوقت تعرف.. ده كمان هتلاقي نفسك مش طايق بني آدم واحد يسكن معاك.

وجدت نفسي أخيرًا أقف فوق سطح البيت.. أشارت لي على مرمى البحر.. انتابني شعور بالراحة والألفة.. كانت لرائحة اليود مفعولها.. سندت على سور السطح المتهالك وأشرت لها على أكثر من نقطة مضيئة داخل البحر:

- إيه النور اللي هناك ده؟
- دي سفن.. ما قولتليش إيه رأيك في المنظر؟
- حلو قوي.. حاجة ماتتوصفش.. بصي هو أنا مش شايف حاجة خالص بس أنا متأكد من زوقك.
- بتهزر؟!

ضحكت وقلت:

- شايف طشاش.

لكزتني في كتفي بدلال ووضعت حقيبتها أرضًا.. سندت على السور بجواري وبمجرد التصاق كتفها بكتفي شعرت وكأنها نقلت لي عدوى..

فيروس بركاني غير نشط اخترق جلدي فوجد البيئة الصالحة لينشط.. فتناثرت حممه في أنحائي.

يبدو أن المرأة الأريبة قد نشطت في داليا.. لا أعلم ماذا لاحظت.. هل توتري أم شعرت بصدى ضربات قلبي المستغيث؟ فقالت بلؤم:

- إنت ما لمستش واحدة قبل كده؟
- عمري.

رمقتني بدهشة ولكزتني مرة أخرى..

- لا بجد؟
- جد إيه وهزار إيه؟ واحد كان عايش مع الميتين هيشوفكم فين؟!
- في البلكونة.

فور أن قالتها وقد تزلزل كياني.. لقد تحولت روحي لمنطقة كوارث.. استطردت مبتسمة:

- إيه مستغرب أني عارفة؟
- هو أنا كنت مفضوح قوي كده؟

قهقهت بخلاعة وقالت:

- مفيش واحدة ما بتاخدش بالها م العين اللي بتراقبها.. وأنا واحدة متأكدة كويس قوي إني مش بعدي على عين غير وسحباها ورايا.
- مغرورة.

ضحكت بطريقة زادت من غرورها وقالت:

- حقي.
- باين إن المرة اللي فاتت كنتي متواضعة حبتين .
- إشمعنى؟!
- عشانك قولتي "دي ثقة".
- أنا مغرورة عشان أنت عايز تشوفني مغرورة.
- مش فاهم.

صمتت لبرهة، ثم استطردت:

- لو ربنا كان خلقك ست حلوة..
- أنا ممكن أتخيل نفسي ست.. بس حلوة!

ضحكت وقرصتني في خدي بمناغاة.. فصدحت صفارات الإنذار في جنباتي تحذرني من حمم بركانية جديدة.. قالت:

- خدني بس على قد عقلي.
- ماشي.

- لو ربنا خلقك ست حلوة.. ولقيت راجل على يمينك هياكلك بعنيه..تعمل إيه؟
- هحط عيني في عينيه لغاية ما ينزلها.
- ده الصح لو لساك راجل.. أما لو إنت الست الحلوة وحطيتي عينيكي في عينيه يبقى معناها إنك سهلة ومستعدة لأي حاجة هو عايزها.

شعرت بسذاجتي.. يبدو أنني لم أعجز عن تخيل كوني امرأة وحسب بل عجزت عن تذكر رجولتي أيضا.. أكملت داليا اختباري:

- ولو بصيت على شمالك لقيت راجل تاني بيبصلك بنفس الطريقة؟
- مفيش قدامي غير أني أبص في الأرض.
- اللي بتبص في الأرض دي واحدة مكسوفة.. والكسوف خوف.
- خوف!
- خوف من أنها ما تعرفش ترد.. وإن ردت تتفهم غلط.. أو تتفهم على مزاج اللي بيكلمها غلط.

كانت تنظر لي بقوة، كالتي تؤكد على أنها عكسهن تمامًا.. أكملت حديثها:

- والرجل لو شاف الواحدة خايفة هيتجرأ يقول ويعمل اللي ما كانش ناوي عليه أصلًا.
- يبقى أبص قدامي.

- هيقولوا عليكي "الشاويش".

ضحكت أنا تلك المرة.. يبدو أني بصحبة امرأة كارثة بالفعل.. فتربعت أرضا مستسلمًا وقلت:

- مفيش قدامي غير أني أبص فوق.
- يا مغرور.

هنا فقط استطعت قياس درجة دهاء داليا.. ضحكت وأنا أضرب كفًا على كف إعجابًا بذكائها وثقتها الشديدة بنفسها.. ظللت أهز رأسي قائلا:

- فهمتك.. فهمتك.. ده إحنا طلعنا مضايقينكم ع الآخر.
- اللي تقولك متضايقة من كده تبقى كذابة.
- الله!.. أنت هتجنيني معاكي؟!

اضطجعت داليا بجواري.. ساندة هي الأخرى بظهرها على السور وقالت:

- أنا جسمي سبق كل البنات اللي في دوري.. كنت في إعدادي أمشي وسطهم كأني أختهم الكبيرة.. وكنت متضايقة قوي من الحكاية دي.. عشان الناس كلهم بيستغربوني وأنا بلعب في الشارع بس لما دخلت ثانوي بقيت فرحانة بجسمي.. تعرف مين اللي خلاني أفرح بجسمي كده؟
- ممدوح فرج؟

- لأ ياظريف.. الشباب.
- الشباب!

هزت رأسها وبدت عليها السعادة وهي تكمل:

- مكنتش بمشي غير وأنا لابسة نضارة شمس.
- عشان مش طايقة تشوفيهم؟
- عشان ما يعرفوش إني شايفاهم.

رمقتني بلؤم مبتسمة.

- ولو كنت ماشية جمب عربية أو فاترينة كنت ببص على انعكاسهم على الإزاز.
- أنا حاسس أني قاعد مع كورومبو.
- الله! كورومبو وممدوح فرج.. ده أنت شكلك كنت عايش حياتك.. أمال إيه بقه اللي عيشتي كلها مع الميتين؟!
- ده هو يوم ولا يومين لما حارس الجبّانة يجيب التليفزيون المعفن بتاعه.. كنت بروح أتفرج شوية عما ييجي زبون.. وياريت كنا بنعرف نتفرج.. الصورة كانت طالعة نازلة وساعة تروح ودقيقة تيجي.. مش عارف كانت مفقرة كده ليه؟!.. أمال لو مكناش بنتفرج على مصارعة وبنتفرج على حاجة تانية كان حصل إيه للتليفزيون؟

ضحكت بشدة.. يبدو أن تعصبي في قص معاناتي كان سوداوي لدرجة الفكاهة.. فاسترجعت موضوعنا حتى لا يسهو عليّ سؤالي:

- ما قولتيليش.. ليه الشباب خلوكي تحبي جسمك؟
- عين الرجل هي المراية بالنسبة للست بس الفرق إنها مش مراية عادية.. دي مراية بتتكلم وتقول رأيها في شكلي.. زي مراية الملكة اللي في فيلم "بياض الثلج".
- مين بياض الثلج دي؟
- أه.. يظهر أن صورة التليفزيون كانت رايحة في فترة طفولتك كلها.
- دلوقت أنا اللي ظريف.. صح؟

قهقهت وهي تربت على فخذي.. هل سأظل منطقة كوارث للأبد؟.. صمتنا لوهلة.. ثم قالت:

- بفضل مبسوطة طول ما بشوف نفسي في المراية وبس.. أما لما المراية دي تطمع في أكتر من كده.. يبقى هاين على الواحدة تولّع في نفسها.
- الحمدلله أنا كنت ببص بس.
- واتبسطت؟
- إيه اتبسطت دي.. إنتي محسساني إني باخد حقنة مخدرات في دراعي.

ضجت بالضحك ثم سعلت بقوة ريثما التقطت أنفاسها.. قلت لها:

- اتبسطت أكتر في المرات اللي كنتِ بتطلعي فيها بالليل.
- عشان كنت متطمن إني مش هشوفك.

لم أعرف كيف تجرأت وقلت هذا ولكن على كل حال هززت رأسي تأكيدًا على جملتها.. قالت داليا:

- كان إحساس حلو.. صح؟

ابتسمت بخجل.. ابتسمت هي الأخرى واستطردت:

- هم الرجالة كده.. يتبسطوا أكتر لما يشوفونا.. وإحنا نتبسط لما نشوف نفسنا.. عشان كده ولا عمركم هتفهمونا ولا إحنا هنفهمكم.
- هكذب عليكي لو قلتلك فاهمك.. بس يمكن إنتِ بتقولي كده عشان اتعودتي الناس تبص عليكِ بس لو كنتِ جربتي أنك تشوفي..
- عارفة.. عارفة إنه إحساس حلو لما تشوف حد وأنت مستخبي بس الأحلى هو إحساس التاني.
- التاني؟
- في حالة لو هو عرف أنك بتبص عليه.

نظرت لها مستفهمًا فقالت:

- لما تحس أنك شايف نفسك.. هتفهم.

ولم نلبث أن سمعنا صوت ضحكات تدنو.. فتلصصنا من فوق حافة السور.. رأينا ظلين يقتربان من البيت.. من هذين؟ هل هما جسدان أم روحان؟ إذا كانا من لحم ودم فكيف تجرآ على الإقتراب من هذا المكان المهجور أثناء هذا الظلام المرعب؟ وإذا كانا شبحين متطفلين فماذا يريدان؟

كارثة.. لو كانا يطمعان في مشاركتنا البيت.. ماذا سوف أفعل؟

(8)

توقف صخب ضحكاتهما بتوقفهما أمام البيت.. يبدو أن أحدهما يريد استرجاع الخيط.. قال صديقه:

- اسمع كلامي.. بناقص.
- اسمع مني.. في اليومين دول مفيش أحسن من المكان ده.
- ياعم بلاش.
- مكنتش أعرف أنك غلبان قوي كده.

جذبه صديقه قاصدًا البيت.. نظرت لداليا وسألتها:

- هنعمل إيه؟
- في إيه؟
- دول داخلين.
- ولا داخلين ولا حاجة.
- إنتِ مش شايفة!

فوضعت يدها على كتفي لأصمت وأشارت لي لأتابع.. وهنا رأيت الشبحين جالسين بعدما أخذا من أحد الجدران مسند.. أخرج أحدهما شيء من جيبه.. وأخذا يرتبان شيء لم أستطع رؤيته في تلك العتمة.

تبادلنا النظرات أنا وداليا.. يبدو أن ركبتيها أرهقا من المكوث على الأرض.. حاولت أن تعدل من جلستها.. فتحرك لوح خشبي من مكانه أثر تعثرها به عن طريق الخطأ.. فقفز الشبحان من مضجعهما بعد سماعهما الصوت.. قال الأول صارخًا في صديقه:

- مش قلتلك.. جالك كلامي.
- ياعم اقعد واستهدى بالله.
- أقعد إيه!.. بعد اللي سمعته ده ولساك مش مصدق!
- ياعم تلاقيها قطة.

وهنا عرفت أنهما من الأحياء.. وفجأة داهمني شعور بالغيرة على المكان.. ودفعني شعور بالعدوان.. فالتقطت حجر ومكثت مستمعًا..

- قطة إيه بس!.. قلتلك البيت ده مسكون.. مسكووووون.

نعم.. لقد صدق صديقك.. فالبيت مسكون.. وأنا من يسكنه..

- يا عم صدقني.. أنا كنت هنا مع الواد شلبي من بتاع أسبوعين وسمعنا أصوات كتير في البيت.

رمقت داليا التي فلتت منها ضحكة.. صمت الشخصان على إثرها.. يبدو أنها تلاعبت بأعصابهما ليلتها..

- سمعت حاجة؟
- زي ما يكون ضحكة.

- عشان تبقى تقولي قطة!.. في قطة بتضحك؟

أشارت داليا على نفسها بمناغاة قائلة :

- أنا.

جعلت أتابع حديثهما المحتدم الذي انتهى بانتصار الثاني.. فلقد استطاع أن ينال من عقل صديقه ويقنعه بأن رياح البحر من تتلاعب بأشلاء البيت وتحدث الأصوات.. وأن كل هذا مجرد خزعبلات.

يبدو أنهما رجعا لاستكمال سهرتهما.. ويبدو أيضًا أن الغيرة سكنت داخلي بسكني البيت.. هممت مستعدًا فحدقت بي داليا مندهشة.. وهنا ألقيت الحجر عليهما.. فقفزا الإثنان من مضجعهما وفرا على الفور، تاركان أشيائهما.

أخذنا نضحك أنا وداليا ريثما انتهينا بنوبات سعال.. ترامت داليا عدة مرات على صدري أثناء قهقهتها.. وتقابلت كفوفنا في تهنئة إلى أن صمتت وتأملتني بعينين غاويتين.. قالت بنبرة تمزج بين الجدية والتحفز:

- تحب تشوف نفسك؟

كان عرضها يقدم لي ميزة ثمينة.. فهي تعرض عليّ تجربة مفهومها حول السعادة.. مكثت أرمقها بنظرة شوق.. ابتسمت ابتسامة ترحيب.. وتحركت اتجاه السلم إلى أن بلعها الظلام.

تسمرت مكاني هنيهة، ثم رميت بصري على شاطئ البحر.. وفجأة جعلتني داليا أشاهد ما لم يخطر لي على بال.. بل ما لم يستطع خيالي رسمه بتلك الحرفية.

لقد شاهدت نفسي.

* * *

في البداية ظننتها طيف، أو روح عالقة مثلي ولكنها في الحقيقة كانت داليا.. لقد خرجت من البيت عارية.. كانت تترجل ببطء قاصدة البحر.

لم أستطع وصف حالتي وقتها.. فلقد كانت كالنور المشع من مواربة باب حجرة معتمة.. لم تلبث أن اختفت داليا في البحر ولكن سرعان ما ظهر رأسها.. وبمجرد أن أشارت لي شعرت بنشوة فاقت متعة رؤيتها متجردة من ثيابها.

شعرت كما لو كان جميع الخلق يشير لي.. فكم أنا شخص مرغوب فيه.. كم أنا محبوب.. جميل.. ذو أهمية.. ذو قيمة.. كم هو شعور بالغ السعادة أن أشعر بوجودي.. بذاتي..أن أشاهد نفسي.

الآن تبدلت أماكننا.. الآن أرى داليا من أعلى.. الآن أرى الدنيا من قرنية عيني لا من قرنية خيالي.

تعثرت على درجات السلم عدة مرات.. لم أكن أكترث لفقداني القدرة على الرؤية في الظلام.. لقد كانت شهوتي بمثابة نور عيني.. هرولت على

رمال البحر إلى أن توقفت على الشاطئ.. كانت المياه تتدفق على أصابع قدمي اليمنى وتسحب الرمال لتدغدغ كعبي أثناء عودتها.. مكثت لحظات ريثما انتبهت لندائها.

وجدت نفسي أتجرد من خجلي.. أتجرد من ترابي وألتحف بالمياه.. حاولت الأمواج الباردة أن تطفئني ولكن ماذا تفعل نقطة مياه في فوهة بركان.. كنت كلما اقتربت من داليا ابتعدت هي.. لا أعرف لماذا؟ هل تلهو معي أم بي؟ حتى اكتفت فتوقفت لاستقبالي.

فور أن غرزت جذوري في أرض داليا الخصبة، شعرت بأنني أنمو.. أتفرع.. أنضر.. أزدهر.. أثمر ريثما استوت ثماري فسقطت على أرضها.

تركتني داليا على الفور وخرجت إلى الشاطئ.. لم يكن هناك طاقة لأتسائل حول ملامحها المبهمة.. كنت منهك للغاية.. وقد تركت نفسي للأمواج التي باغتتني عدة مرات بدخول مياهها المالحة فمي.

بعد دقائق خرجت واستلقيت مرهقًا لأشعر ببرودة رمال الشاطئ أسفل ظهري.. أما هي فقد كانت نشيطة للغاية.. ركضت تجاه البيت وعبثت بالقرب من جدرانه.. ورجعت مرة أخرى وبحوزتها علبتين.. ثقبتهما ووضعت قطعتين لونهما بني وهي تتمتم بسرور:

- حشيش مغربي.

كنت أول مرة أرى فيها الحشيش.. كانت داليا تحضرهما بحرفية لم أتوقعها من امرأة.. يبدو أنها عاشت حياة ثرية.. ناولتني علبتي قائلة:

- دبوس.

لا أعرف ماذا تقصد؟.. على كل حال داهمني شعور بالخجل من فكرة جهلي أمامها بتلك الأمور.. وجدت رجولتي منذ قليل فكيف أضيعها الآن بإفشاء برائتي.. ولذلك جعلت أقلدها دون ملاحظتها.. شرعت في شد الأنفاس.. سعلت في البداية ولكن سرعان ما تأقلمت.. بمجرد انتهائنا شعرت بتجدد نشاطي.. بنسيم يدغدغ وجهي.. بسعادة تغمرني.. بضحكات تقودني.

ضجرت داليا بالضحك لمشاهدتي على هذه الحالة.. ألقيت عليها حبات الرمال فأمطرتني بالقواقع وفرت على الفور.

الحياة ليست جسد نابض، بل روح تركض عارية لتستتر بهواء بارد.. شاطئ من رمال ناعمة للخطوات سارد.. رائحة يُود تشعرني كم أنا في الدنيا خالد.. كل هذا وأمام العين امرأة ساطعة تشق الظلام.. ضحكاتها تصيب القلوب بسهام.

استحممنا بالرمال وانبسطنا على المياه.. لهونا وعبثنا وركضنا وتعثرنا ريثما افترشنا الشاطئ لاهثين.

بمرور الوقت لملمنا بضعة أكياس بلاستيكية نثرتها الرياح.. عبئناها برمال وسكبناها على سطح البيت.. افترشناها نتأمل السماء المرصعة بالنجوم.

لم أعد أترجى الصعود إليها كما كنت.. فما تذوقته منذ قليل في عالمي المعلق لم أفُز به في حياتي.. ما تذوقته روحي لم يتذوقه جسدي.

لن أنكر دهشتي.. فلقد مرت عليّ لحظة اندهشت للأمر.. كيف وأنا مجرد روح بدون جسد أمارس ما مارسته منذ قليل؟ ولولا تذكري أحلامي لأصابني الجنون من هذا العالم المعلق.

فعندما كنت حي أرزق كان عقلي الباطني يمن عليّ بأحلام أثناء استغراقي في النوم.. فأحيانًا أركض هربًا من أموات تطاردني.. وأحيانًا عشرات الرجال ينهالون عليّ ضربًا بمجرد خروجي من المقابر للشارع.. ومرات معدودة كافئني بتقضية ليلة حمراء.

باختلاف ما مررت به كان يجمع بين كل تلك الأحلام شيءٌ واحد، ألا وهو مصداقية شعوري بتلك التجربة، فلقد كنت أشعر باللكمات والركلات تنزل على عظامي تهشمها.. كنت أشعر بعصر قلبي خوفًا.. بالعرق البارد ينساب على جبهتي.. بمذاق الشهوة كما لو كنت في الحقيقة.

وأين كان جسدي وقتها؟ لقد كان مستسلمًا للفراش.. كانت روحي هي من تتألم وتهلع وتتمتع وتتذوق.. وأين الأجساد الميتة من الشعور الآن بعدما تخلت عنها أرواحها؟

- طبعًا إنت بتسأل نفسك عملت كده ليه معاك؟

لم أكن أتوقع مثل هذا السؤال من داليا.. وكيف أتوقعه وهو لم يشغلني؟.. الأهم عندي أن ماحدث قد حدث.. هززت رأسي وقلت ببراءة أطفال:

- **لأ ما سألتش ولا حاجة.**
- **يعني ما قولتش لنفسك دي أكيد عملت كده مع كتير قبلي.**
- **طب ما أنت عملتي كده مع قبلي.**

ما حدث بعد ذلك لم أتوقعه أيضا.. بل تفاجأت به.. وتفاجأت بحقيقتي.

*** * ***

التقطت داليا حقيبتها وضربتني بها على رأسي.. قالت باشمئزاز:

- **أنا بجد مش عارفة عملت كده إزاي معاك!.. رجالة تقرف.**

لم أفهم سبب غضبها.. فهي من أخبرتني من قبل بما نطقت به توًا!.. قفزت من استراحتي الرملية.. واستوقفتها قبل نزولها.. وأخذت في محاولة إرضائها على قدر الإمكان ولكن يبدو أنني كنت فجًا لدرجة كبيرة.. فالتقطت حقيبتها من الأرض وفتحتها وأخذت أعبث بمحتوياتها.. اختلجت نظرة فوجدتها تراقبني بذهول..قالت:

- **أنت إيه اللي بتعمله ده؟!**

وأخيرًا عثرت يدي على واحدة.. أخرجت قطعة شيكولاتة وأعطيتها إياها وأنا أقول بنبرة آسفة:

- أنا مش عارف عملت إيه بس مش عايزك تزعلي.

تفحصتني بدهشة وقالت:

- يعني بعد اللي قولته ده ومش عارف عملت إيه!.. وكمان بتصالحني بشيكولاتتي!
- ما هوه أنتِ معاكيش غيرها في شنطتك.

قلتها ببراءة فقهقهت داليا حتى دمعت.. وقالت:

- أنا ماشوفتش حد غشيم بالشكل ده.. أنا لولا أني عارفة أن عمرك ما إتعاملت مع ستات كنت قلت إنك أكبر كذاب في الدنيا كلها.
- ليه بس؟
- إنت بجد مش واخد بالك م اللي قولته ولا اللي عملته في شنطتي دلوقت؟

رمقتها بنظرة مبهمة.. فهزت رأسها وجذبتني من معصمي وعادت بي لمجسلنا.. اضطجعت أمامها كالطفل المذنب.. لقد شعرت بالخجل والإهانة في رجولتي.. وهذا كاد أن يدفعني لسؤالها عن درجة تقييمها لأدائي معها ولكنني تراجعت خوفًا.. فيكفي هذا الكم من الإنكسار.. قالت:

- أنت غشيم بس مختلف.
- مختلف؟
- أه أول مرة حد يبقى معايا سافل قوي كده.

كدت أن أغضب ولكنني خِفْتُ من رحيلها فصمتت.. استطردت:

- حتى ماهر عمره ماحاول يبقى سافل كده معايا.
- ماهر؟
- ده الراجل اللي كنت معاه في العربية.

تعمدت ألا أعطيها أي تعبير حتى لا أقع في الخطأ مرة أخرى ووقتها ستتركني للأبد.. قالت:

- كان عميل عندي في الشغل.
- كنتِ شغالة إيه؟
- شركة تداول أوراق مالية.

لم أفهم ولكنني هززت رأسي بالإيجاب حتى أستر جهلي..

- شغلة زي شغلتي دي عاملة زي القمار.. ساعة فوق وساعة تحت.. في لحظة الواحد يضيع كل اللي معاه وفي لحظة يكسب الضعف.
- ولسه فيها زباين.
- كل يوم بيزيدوا عن اليوم اللي قبله.

- دول مجانين.
- وأنا مكنش أقدر أعيش في وسطهم من غير ما اتجنن.
- راهنتي زيهم؟
- راهنت بس مش على أسهم.. على راجل.. ماهر.. يمكن ماهر شكله مش ولابد وفلاح في لبسه بس اللي معاه كان هيخلي حياتي حاجة تانية خالص.. فضل ورايا فترة طويلة لغاية ما عبرته بريق حلو.. في الأول كنت مستبعدة الفكرة وشايفاها كارثة بس مع الوقت بقيت شايفة الحكاية عادية.. يعني في الأول قلت مش هيحصل حاجة لو وصلني بعربيته.. وبعدين قلت مافيهاش حاجة لما يمسك إيدي.. وهكذا.

لا أعرف لماذا داهمني شعور بالغيرة من هذا الرجل.. أكملت داليا:

- رِفعت مكنش وحش.. كان طيب وحنين قوي ومابيحاولش يزعلني بس كان شايف أن اللي بيساهموا في البورصة مجانين برضه.

أطرقت رأسي خجلًا..

- صعب على واحدة تعيش جزء كبير من يومها في وسط كل الأرقام دي وترضى بالحياة اللي مع رفعت.
- بس رفعت ده دكتور و...
- عد فيه كام دكتور في البلد.. وعد فيه كام ماهر.. رفعت كانت حياته المستشفى وبس.. أنا لولا زنّيت عليه وحس أني مش

هوافق بخطوبتي منه مكنش جاب الشقة اللي في "الجوهرة".. وخالتي أصلًا اللي كملتله على تمنها.

- خالتك؟
- ما أنا ورفعت أولاد خالة.
- أه يعني زيتكوا في دقيقكوا.
- يمكن من ناحيتي.. عشان كبرت من غير ما ألاقي العريس اللي في دماغي.. وبرضه الزن ع الودان.. بس بالنسبة لرفعت كان بيموت فيّ من واحنا أد كده.

أشارت داليا بيدها كعلامة على صغر العمر..

- كان بيحبني لدرجة أنه ماقدرش يطلقني حتى بعد ما عرف.
- هو عرف؟

حدقتني بنظرة حادة.. يبدو أنني قد أخطأت من جديد ولكن شعور الدهشة قد طغى على الخجل.. أي حب هذا الذي يجعل رجل يعلم بخيانة زوجته ويوافق على استكمال حياته معها!.. استطردت:

- في يوم.. حسيت أن رفعت بدأ يشك.. فطلبت من ماهر نبعد فترة.. كنت وقتها لسه خايفة على حياتي مع رفعت.. زي ما تقول كده ما كنتش عايزه أخسر حاجة.. بس أسلوب رفعت بدأ يتغير معايا ومابقاش يعمل حاجة أطلبها.. مابقاش يهمه زعلي.. وها يهمه ليه وأنا كلي مابقتش معاه.. في الوقت ده

مابقتش طايقة لا رفعت ولا عيشته.. أخدت خلاص على حياة تانية خالص.. عشان كده كان لازم أغامر بحياتي مع رفعت.

صمتت قليلًا، ثم أكملت:

- روحت لماهر.. والواطي عاش عليّ بعد ما كان بيحفي ورايا.. ليلتها وهو بيوصلني كعادته قدام باب المدافن طلب مني بكل بجاحة ينام معايا في عربيته.. ولما قلتله نروح شقته كعادتنا حسيت المرة دي بجد إني هخسره.. وافقت.

صمتت وازدردت ريقها بصعوبة.. وأردفت:

- مش عارفة ليه هو طلب يعمل كده في عربيته؟ شاف حاجة وحب يجربها.. ولا كان عايز يكسر عيني.. مش عارفة بالظبط.

توقفت وسندت على السور متأملة البحر المظلم..

- ليلتها من كتر قرفي منه ومن نفسي ما سيبتش جسمي بس له.. سبت دماغي كمان.. عشان كده صدمتي كانت أضعاف لما رَفعت راسي وبصيت لقيت...
- بس خلاص ما تكمليش.

هكذا قاطعتها.. لقد تحملت بصعوبة ثقل تخيلها بين أحضان رجل آخر ولكني لم أتحمل تخيل صورتي وأنا أظهر من خلف باب المقابر المعتم أقضي عليها بصراخي المرعب.. نهضت وتوقفت بجوارها.. تفاجأت بيدي

تربت على كتفها.. كان الذنب يعصرني.. حدقتني بدموع نادمة.. تلعثمت بنحيب:

- كنت عايزة أقب على وش الدنيا فخسرت ضهرها.

ضممتها إلى كتفي.. وشَرَعَت تسرد مقتطفات من عمرها.. حدثتني عن علاقاتها فترة مراهقتها وشبابها.. وحلفت لي أنها لم تدخل في علاقة حميمية خارج الزواج إلا مع ماهر ومعي.. وفعلت ما فعلته معي لعشقها لي.. فلم تجد عطفًا وحنيةً وآمانًا كما وجدتهم معي.. صدقتها لا أعلم لماذا؟ هل لأسترجع هيبة رجولتي أم لضعف قلبي أمام دموعها.. نعم فلقد كانت صادقة بالتأكيد.

قَصَّتْ عليّ أيضًا جميع الوظائف التي شغلتها: سكرتيرة بشركة استيراد وتصدير.. ومكتب استخلاص جمركي.. وشغلت مقاعد عديدة في قسم العلاقات العامة في شركات عِدَّة.. وأخيرًا في شركة تداول أوراق مالية.

لا أعلم كيف تنقلت بين كل تلك الوظائف وهي في هذا العمر المبكر؟.. كل ما علمته أنها شخصية شجاعة.. حنونة.. متقلبة.. لا أعلم إذ كانت مغرورة أم واثقة ولكنها امرأة قادرة على مفاوضة عشرات الرجال في جلسة واحدة بمفردها.

* * *

لا أعلم إلى أي شيءٍ انتهينا قبل أن أغيب في متاهات النوم.. فور استيقاظي وضعت يدي على حاجبي مستظلا بها من الشمس لأستوضح بعينين ناعستين مَن أمامي.. كانت داليا التي ارتدت ثيابها.. وقفت أمامي لتحجب الشمس في حالة كسوف جديدة.. سألتها:

- رايحة فين؟
- يهمك تشوفني تاني؟
- إنتِ ناوية تغيبي تاني.
- هطلب منك طلب.. لو ما قدرتش تعمله مش هتشوفني مرة تانية.

(9)

لابد وأن أنفذ طلبها وإلا سأخسرها للأبد.. وأنا لن أتحمل خسارتها.. هرولت واللهفة تنهشني.. هل سأفقد حضنها؟.. ونسها؟.. رائحتها.. لا أقوى على تخيل عالمي دونها.

توقفت أمام عمارتها.. كان هناك بعض العمال يفرغون عربة ربع نقل من حمولتها.. دخلت العمارة بعدما مررت من أمام حارس بوابتها.. كنت أصعد درجات السلم ٍ من عدم نجاحي في مهمتي.

عند وصولي وجدت الباب مفتوحًا .. كان هناك عامل يدخل من الباب حاملًا لوحًا خشبيًا كبيرًا.. برغم من أنني غير مرئي لأعين الأحياء إلا أنني عند دخولي للمنزل شعرت بريبة.. ها أنا داخل المنزل الذي حلمت بوجودي فيه.. كانت هناك سيدة عجوز تصلي على الأريكة.. خلف رأسها لازالت صورة داليا - التي لصق عليها شريط أسود- معلقة.. خرج عامل من الغرفة بعدما وضع حمولته مر بجواري ونزل.

لماذا تعمدت داليا أن تشعرني بصعوبة مهمتي؟ فأنا لا أجد أي خطورة.. ولماذا لم تحضر بنفسها؟ فهي غير مرئية هي الأخرى.. لابد أنها توقن أن ابنها في هذا العمر المبكر متاحٌ له رؤيتها.. ومثل تلك المواقف ستكون شديدة الصعوبة بالنسبة لأم.

دخلت الغرفة.. كان بحثي عن الحقيبة التي طلبتها في غاية الصعوبة وسط تلك الفوضى.. كان هناك مكتب موضوع بطريقة عشوائية وسط الحجرة.. وبعض الألواح الخشبية ومرآة كبيرة، مستندون على الدولاب والحائط.. فتحت الدولاب وجعلت أبحث.. أين هي تلك الحقيبة الصفراء التي أخبرتني عنها؟

تسلل إلى أذني صوت رفعت يتفاوض مع العمال حول أجرتهم.. بعد وهلة رحلوا وأغلق الباب.. فتحت باب الدولاب الآخر فداهمتني رائحة عطر داليا.. صدقت عندما أخبرتني بمدى عشق زوجها لها.. فهو لا يزال محتفظًا بثيابها.. جائتني فكرة غريبة بأن أحتفظ ببضع قطع من ثيابها الداخلية ولكنني صرفت النظر بمجرد وقوع بصري على مقصدي.. كانت الحقيبة الصفراء موضوعة في زاوية.

التقطتها وما أن التفت حتى وجدت السيدة العجوز ماثلة أمامي.. نادت:

- عمر.

لم أهتم.. وهممت للإنصراف.. ولم يلبث أن ثبتت عينيها في عيني.. هل هذا معقول؟!.. وفجأة صرخت من قلبها ووقعت فاقدة الوعي.

انتباني التوتر والتخبط.. لا أفهم.. سمعت رفعت ينادي عليها:

- في إيه يا ماما؟

رجعت بضعة خطوات مرتبكًا.. لا أفهم ما يحدث؟ هل أصبحت مرئيًا الآن؟! تخبطت خطواتي في اتجاهات عشوائية ضامًا الحقيبة إلى صدري.. سمعت خطوات رفعت تقترب.. فشعرت وكأن روحي قد كُسِيَتْ بجسد.. قشعريرة امتلكت جلدي.. دم تدفق من قلبي.. وهنا تخشبت مكاني في انتظار مواجهته.

* * *

بمجرد دخول رفعت وقد تهاوى بجوار السيدة في محاولة لإفاقتها.. رحل وبعد لحظات كان قد حضر بزجاجة مياه يسكبها على وجهها.. لم أستطع الفرار في تلك اللحظات القليلة التي تركها لي.. وكأن الخوف والذهول والتوتر قد نموا من باطن قدمي وغرزوا جذورهم في أرض الحجرة.

استفاقت السيدة وهي تلهث.. سألها رفعت:

- حصل إيه؟
- هو فين؟
- هو مين؟!
- كان في واحد واقف هنا دلوقت.

قالتها السيدة بنبرة هلع.. فطاف رفعت بنظرة سريعة في الحجرة.. يبدو أن ضعف الإضاءة قد حال دون ذلك..

- مفيش حاجة.

- يابني صدقني.. ده كان واقف قدامي زي ما أنا شايفاك كده دلوقت.

تمنيت أن يكون لها تاريخ في الهذيان حتى لا يصدقها ولكنه نهض بالفعل وأضاء المصباح الكهربائي.. كاد قلبي أن يتهاوى من عرشه.. شرع رفعت يفتش بين الأغراض ولكن كيف هذا فأنا واقف أمامه مباشرة.. والغريب أن المرأة كانت تبحث بعينيها هي الأخرى.. أخذ يفتش داخل الدولاب ريثما توقف أمامي.. تقابلت عينانا فانقبض قلبي.. مكثنا هنيهة هكذا إلى أن التفت وقال للسيدة:

- مفيش حد يا ماما.
- شكلي يابني كبرت وخرفت.

قالتها السيدة بأسى.. اصطحبها رفعت للخارج فتنهدتُ مستريحًا.. خرجت بعد لحظات.. كان رفعت قد أجلس أمه على مقعد في البلكونة لتستنشق الهواء وهو يناولها كوب ماء.

كان "عمر" مشغولًا في فتح الباب.. وبمجرد أن فتحه التفت لي وابتسم.. ابتسمت له وانصرفت.. كانت الحيرة تسبقني نزولًا على درجات السلم.. هل ستختفي الحقيبة بلمسي لها مثلها مثل ثيابي؟.. لو لم تختفي ستحدث فوضى في الشارع.. كيف لحقيبة أن تتنقل أمام أبصار الجميع دون حامل؟ ما التصرف الآن؟..لقد اقتربت من بوابة العمارة.

* * *

خلعت قميصي وغطيت به الحقيبة.. لا أعرف هل ستخفيها أم لا؟ ولكن لا يوجد أمامي خيارٌ آخر.. خرجت من البوابة مهرولًا.. ساعدني الحظ في عدم وجود حارس العقار إضافة إلى خلو الشارع تقريبًا من المارة.

قصدت البيت المهجور كما اتفقت مع داليا.. وبمجرد دخولي باغتتني أمعائي بألم كطلق الحامل.. اخترت أحد أركان سطح البيت وقضيت حاجتي بصعوبة بالغة.. لقد كانت المرة الأولى في قضائي الحاجة منذ هجري للمقابر.

يبدو أنني كنت مخطئًا في اعتقادي بالنسبة لتلك النقطة.. فمعيشتي في حياتي المعلقة ليست قاصرة على المأكل والمشرب والنوم بل أيضًا قضاء الحاجة.. لقد تأكدت لي الآن قصص الأرواح المتجسدة في كائنات أخرى.. من الممكن أن تكون روحي لبست جسد حيوان أو طير أو حشرة تستعمل من خلالهم حواسهم الخمسة دون علمي.. ويبدو أيضا أن الأرواح ترى نفسها وبعضها البعض على صورتها الحقيقية وتظهر للأحياء بصورة الكائن المتجسد.

لم أقوَ على الانتظار على السطح حيث الشمس الحارقة.. جلست في الطابق الثاني.. كانت أشعة الشمس تنفذ من ثغرات عدة.. وضعت الحقيبة بجواري ومسحت حصى بيدي قبل أن أفترش الأرض.. سندت بظهري متأملًا زرقة البحر من خلال فوهة نافذة مهشمة.. وطفق عقلي يتسائل:

كيف تجسدت أمام بصر السيدة ومن ثم اختفيت مرة أخرى؟ لابد وأنني دخلت في مرحلة جديدة.. مرحلة قد بدأت بسكني البيوت المهجورة ولكنني لم أنتبه.. لم أنتبه إلى أنني أصبحت شبحًا .. شبحًا يستطيع أن يحدث أصوات مزعجة للأحياء.. شبح في استطاعته أن يتجسد في صورة مرئية ومتغيرة للعيان ولكن متى باستطاعتي الظهور والاختفاء؟ لا أستطيع العيش هكذا.. كيف أظهر فجأة كما حدث؟ لقد كدت أن أتسبب في مقتل إنسان آخر.

تغلغل لسمعي صوت وقع خطوات على السلم.. ظهرت أمامي داليا.. كان جمالها يسلب القلوب.. قالت بجدية:

- قبل ما دخل.. جبتها ولا أمشي؟

أظهرت الحقيبة من جانبي.. فابتسمت وأقبلت عليّ والتقطتها مني.. فتحتها ونظرت بداخلها فأشرق وجهها.. لا أعرف لماذا لم أهتم بمعرفة ما بداخلها!.. هزت رأسها راضية وكادت أن ترحل لولا أن قلت:

- هشوفك الليلة؟

توقفت فجأة ثم استدارت وجعلت تتفحصني لبرهة.. كانت كالتي تشير نفسها في أمري.. قالت:

- حد شافك؟

يبدو أنني كنت على صواب في استنتاجاتي.. قلت:

- أم الدكتور رفعت.

بدا عليها الهلع والتوتر..

- وحصل إيه؟
- كان في ناس داخلة وطالعة شايلين حاجات وأنا كنت في...
- فهمت.. فهمت.

واضح أنها تعرف المرحلة التي أمر بها الآن.. ولذلك رفضت أن تذهب لإحضار حقيبتها بنفسها.. فمن المؤكد ظهورها لاسيما في منزلها.. فالأرواح تظل متواجدة حول منزلها الذي عاشت فيه دنيتها.. فأنا أيضًا لا أقوى إلى الآن على الابتعاد عن محيط المقابر.. قالت قبل أن تنصرف:

- اسمع يا باروني.. أنا هكلمك بصراحة.. أنا كنت ناوية آخد الشنطة دي وماتشوفنيش تاني.

باغتني شعور بالخيبة والسذاجة..

- بس اللي عملته النهاردة هيخليني أفكر ميت مرة قبل ما أخد القرار ده.. اسمع.. إحنا الأتنين داخلين على حياة جديدة.. لو فاكر أننا كنا هنعيش على الحال ده علطول تبقى غلطان.. شايف نفسك هتقدر تبقى معايا؟

نهضت على الفور قائلا بحماس:

- أدها وأدود.
- اللي أنت عملته النهاردة ممكن أطلبه تاني.
- وأكتر منه.

ابتسمت..

- هفوت عليك بكرة.
- هنا؟
- المكان ده ما بقاش يناسب حياتنا الجديدة.

صمتت قليلا ثم استطردت:

- قابلني عند نفس المستشفى اللي كنت قابلتك عندها أول مرة.
- إمتى؟
- العصر.

قالتها وانصرفت لتنصرف الحياة من البيت .

* * *

استيقظت بعدما نهشت الشمس وجهي.. فنزلت من السطح للطابق السفلي حيث الظل.. لا أعلم الوقت تحديدًا ولكن موضع الشمس يبشر ببركة الوقت المتاح لي.. لابد وأن أجد طريقة أهندم بها مظهري الخارجي قبل موعدي.. لن أترك فرصتي الوحيدة في عالمي المعلق.

ما قالته داليا لا يبشر بخير.. فقد كانت تنوي الإبتعاد عني.. شعوري بالضئالة والحقارة وأنا بجوارها كان صحيحًا.

صحيح أنها أعطتني تصريحًا ببناء أحلام على أرضها ولكنها زيفت أساسها.. كانت طوال الوقت تشعر بالتقزز مني.. كنت أشعر من نظراتها ولكني كنت أكذّب نفسي حتى لا أفقد متعة رؤية نفسي.. لم تختر البحر اختيارًا عشوائيًا .. فلقد كانت تنظفني قبل أن أتخطى مطارها.. والآن أعطتني فرصة لأكون مواطنًا في مدينتها.. ولذلك لابد وأن أجد بطاقتي التي ستتيح لي الإقامة الدائمة.

* * *

بمروري أمام بعض الأبنية داهمتني فكرة.. فلقد وقعت عيني على بلكونة رصت في مقدمتها ملابس مبللة.. لم أتردد للحظة.. ظللت أتفحص درجة جفاف الثياب من عدة بلكونات واقعة في الطابق الأرضي.. وهنا توقفت أمام الإختيار الأمثل.. اقتنيت ثوبًا رائعًا.. كان يتكون من بنطلون وقميص.. وانتبهت لجوارب تناديني فلم أخذلها.. ولذلك فلقد كافئتني بتذكيري بالملابس الداخلية المجاورة لها.

لم يتبقَّ غير حذاء.. توجهت لجامع.. كان المصلون ساجدين.. اقتنيت حذاءًا أسودًا لامعًا.. كانت جودة جلده تنم عن ارتفاع ثمنه.. تجرَّدْتُ من ثيابي كاملة واستحممت.. وخرجت من الحمام بثوبي الجديد تاركًا القديم.

كانت صلاة الظهر قد انتهت توًا.. خرج جحافل المصلون من الباب في ازدحام.. وقعت عيني على شذرمة من الرجال يبحثون عن شيءٍ ما.. يبدو أن أحدهم صاحب الحذاء.. لم أكترث وهممت للرحيل ولكن فجأة حدث ما لم يخطر على بالي منذ حادثتي.. حدث ما سيقلب آيتي تمامًا.. سيقلب حقيقتي.. سيقلب عالمي.. وموقفي من حياتي ومماتي.. فما عرفته الآن كان بمثابة برق قد قسمني لنصفين

(10)

ربت أحدهم على كتف الرجل قائلًا:

- أولاد الحرام ماسابوش لأولاد الحلال حاجة.

قال آخر:

- ربنا يعوض عليك.

كان الرجل مطرقًا رأسه.. وفجأة تثبتت عينيه على قدمي واقترب مني قائلا:

- ما شوفتش حد ماسك جذمة أخت اللي معاك؟

التفت خلفي، ثم حدقت في عينيه:

- أنت بتكلمني؟
- أيوا يا أستاذ.. أصل جذمتي مش لاقيها.

مكثت وهلة صامتًا فتفحصني الرجل باندهاش وتركني ليستكمل بحثه.. ترجلت في ذهول.. هل ظهرت من جديد للعيان كما حدث مع السيدة أم ماذا؟.. استوقفني رجل آخر كان في عجلة من أمره :

- فين مكان الوضوء الله يجازيك خير؟

- أنت شايفني؟
- نعم؟!

حدجني الرجل باستغراب وانتقل لرجلٍ آخر يسأله حتى لا يضيع وقته.. خرجت من الجامع مذهولًا.. جلست على مقعد عام لما يقرب من الساعة أحاول فهم ما حدث حتى جائني شاب يسألني:

- بقولك إيه يا باشا.. فين أقرب مكتبة هنا؟

المرة الماضية لم يستغرق وقت ظهوري غير ثواني.. والآن قد مرت ساعة ولازال الجميع يراني.. قلت له:

- إنت متأكد إنك شايفني؟
- إيه؟!

تفحصني الشاب باستغراب قائلًا بسخرية:

- في إيه ياباشا؟! لما اللي زيك يصرصر أمال إحنا نعمل إيه؟

رحل الشاب ضاربًا كفًا على كف وهو لازال يلتفت خلفه متعجبًا.. نهضت واتجهت لبائع متجول.. توقفت أمامه والتقطت ثمرة.. فالتقط البائع كيس بلاستيكي وسألني:

- كام كيلو يا باشا؟

لم أكترث وأخذت أعبث في الفاكهة فقال:

- أه يظهر الباشا بياخد فكرة.. شوف.. ما دام دوقت فاكهتي هتبقى زبوني.

فاجئني مجذوب بوقوفه جواري.. التقط ثمرة ورحل.. فقلت للبائع:

- في واحد أخد تفاحة ومشى.
- غلبان ياباشا.. اللي زي ده مش داري بحاجة.. ما أنا لو أخدتها منه هيموت من الجوع.. الثواب مابيضيعش سيادتك.. ماقولتليش هتاخد كام كيلو؟

تركته ورحلت وأنا أتسائل عن ما يحدث.. توقفت بالقرب من (إدارة شرطة الأحوال المدنية).. وهنا جائني صوت:

- ممكن خطوتين كده سيادتك.

فالتفت لأرى شاب يمسك بدلو ممتلئ ويستعد لسكبه أمام محله.. أعاد طلبه:

- خطوتين بس بعد إذنك.

انصرفت وشرعت ألملم ما حدث لي منذ الحادث ريثما رأيت حارس العقار الذي يسكن فيه الدكتور رفعت.. أثناء اقترابي منه لاحظت رجلًا يربت على كتفه قائلا:

- لا يا سعيد ما تقولش كده.. إحنا مالناش بركة إلا إنت.

- تشكر يابيه.. والله لو كل السكان زي حضرتك كده مكنش حصل اللي حصل.
- أنا عايزك تشوف شغلك وكأن ماحصلش حاجة.

قالها الرجل ودخل العمارة في حين كان حارس العقار يدعو له.. لم أتوقف.. فقد عبرت البوابة على الفور لأرى رد فعل الحارس.. ناداني الحارس:

- أيوا يا بيه.
- طالع لدكتور رفعت.
- اتفضل.

هززت رأسي وكدت أصعد ولكني رجعت أسأله:

- بقلك إيه؟
- أؤمرني يابيه.
- أنا من يومين جيت ورميت عليك السلام ودخلت.. بس أنت ولا قولتلي رايح فين ولا جاي منين.. ده أنت حتى ما رديتش السلام.
- ماتآخذنيش يابيه.. سبحانه بس اللي كان يعلم باللي فيّ.
- أصل دي مش مرة ولا اتنين.
- ما تأخذنيش في الكلمة.. بس لما تتهان قدام حريمك وعيالك.. ومن مين؟ من واحدة ست.. يبقى الدنيا و مافيها.. أنا دمي حر

يابيه.. عشان كده حلفت ميت يمين أني هقعد على الكرسي ده..

وضع يده على مقعده الخشبي..

- زي اللوح.. زي ماهي شتمتني تمام.. لا هعبر داخل ولا خارج.. حتى لو كان قتال قتلة.. لغاية ما يرجعلي إعتباري قدام مراتي وعيالي أو أخدهم وأرجع البلد.. أمال يابيه.. الواحد من غير كرامة كأنه ميت بالظبط.
- وإيه اللي منعهم يطردوك؟!
- نحمده ونشكر فضله بقالي سنين هنا.. شايف شغلي بما يرضي الله.. وإيدي نضيفة.. وهمَّا مشوني مرة ولما جربوا غيري رجَّعُوني.. أنا مش عايش غير بسمعتي.

هززت رأسي وانصرفت.. سمعته ينادي :

- طب مانتاش طالع للدكتور؟.. ياأستاذ.. يا أستاذ.

تخطيت الشارع قاصدًا البيت المهجور.. ومشيت بحذاء سور مقابر الأرثوذكس وأنا أتسائل: لماذا لم يراني أحد إلا الآن؟.. هل تعمدوا تجاهلي أم خوفي مَن صَنع هذا العالم المعلق؟

كنت قد وصلت لشارع 23 يوليو.. وقعت عيني على شيء يتحرك ناحية باب رقم(1) في مقابر المسلمين.. لابد وأنه هو.. هرولت متمنيًا أن يكون

هو.. وفور أن تأكدت أنه نوفل دفعني غضب مفاجئ للركض تجاهه.. كانت هناك أسئلة في صدري هو فقط من يملك إجابتها.

هجمت عليه كفهدٍ جائع.. تشبثت بياقته فصرخ هلعًا:

- إيه؟ عايز إيه؟
- عملت فيّ كده ليه ؟ ليه؟

هكذا صحت بغضب شديد.. فثبت للحظة يتأملني وبمجرد أن عرفني دفعني قائلًا:

- الله! الله! الله!.. ده النعمة ظهرت عليك.. تصدق ماعرفتكش.
- بطل لف ودوران.. ليه عملت فيّ كده؟
- عملت إيه؟
- ليه فهمتني إني ميت؟
- إيه!.. مش فاهم!.. ميت إيه ونيلة إيه!.. أنت بتقول إيه ياجدع أنت؟
- كنت تقصد إيه لما قولتي إبعد عن الجثة اللي معايا؟
- ويعني أنت أخدت بنصيحتي؟ ما هي النعمة بانت عليك أهه.

قالها بسخرية فأمسكت بثيابه مرة أخرى قائلًا بنبرة تحذيرية:

- لو مارتدش على أد السؤال هدفنك هنا.
- حقك.. ما هي الفلوس السهلة بتجمد القلب.. مسعرها بكام؟

- هي مين دي؟!
- الجثة اللي معاك.
- قصدك مين؟
- مين اللي بيلف ويدور دلوقت؟ المَرَة اللي أنت مرافقها.

دفعني بعيدًا عنه ونهض..

- نصحتك تبعد عن السكة دي.. تسريح النسوان بيجيب أحلى فلوس بس أخرتك هتبقى زيي بالظبط.. جثتك أول ما هتلاقي مصلحتها مع قُرني تاني هتفلسعك.

استشاط غضبي من نعتي بتلك الصفة..

- قلتلك سيبك منها وشوف حياتك إنت ماسمعتنيش.
- إنت فاهم الحكاية غلط.

قهقه نوفل وقال:

- كل التغيير اللي أنت فيه وتقولي فاهم غلط!.. روح.. روح يابني.. أنت اللي زيك عنده استعداد يبيع نفسه عشان ياكل.. بس يكون في علمك.. أنت عمرك ماهتشبع أبدًا.

قالها وانصرف.. يبدو أن عم نوفل لم يضللني كما ظننت.. بل أنا من فهمت حديثه بشكلٍ خاطئ ولكن كيف لي أن أعرف أن لفظ "جثة" المقصود منه المرأة المثيرة؟.. فجأة حلق حولي أذان العصر.. قبض قلبي

على الفور من فكرة أن يفوتني موعدي مع داليا.. داليا التي معها مفتاح دخولي الدنيا.. معها مفتاح لألغاز عدة حول ما أعتقدت أنه العالم المعلق.

نهضت من الأرض وركضت بكل طاقتي لعلي ألحق فرصتي الأخيرة.

* * *

توقفت أمام المستشفى في محاولة لالتقاط أنفاسي.. كنت أبحث عنها وأنا أمسح العرق المتساقط على عيني.

أثناء ركضي لاحظت متابعة المارة لي بفضول.. بخلاف المرة التي ركضت خلالها بثيابي الرثة.

بعد برهة تحركت عربة حمراء من ركنتها.. لم أكترث ولكن بمرورها من أمامي شممت رائحة عطر داليا.. فتفحصت بعيني انعكاس السائق في مرآة الباب الجانبي.. فناديت بلهفة:

- داليا.. داليا.

توقفت السيارة.. هرولت وركبت بجوارها.. فانتفضت مفزوعة ولم تلبث أن رمقتني بدهشة ممزوجة بإعجاب ..

- يخربيتك.. أنا ماعرفتكش!

أخذت تتأملني.. قالت بلؤم:

- يبجي منك.
- قبل ما نتكلم في حاجة.. كنت عايز أعرف حاجة منك.
- خير؟
- أنا لما دخلت بيتك شوفت حاجة غريبة قوي.

نظرت لي باستفهام..

- شوفت صورتك متعلقة على الحيطة.. وملزوق عليها شريطة سودة.

اختفت مستحضرات التجميل من وجه داليا ليحل محلها مستحضرات الحزن والحسرة.. قالت بنبرة تحمل الغم على أطرافها:

- دي صورة رانيا.
- رانيا؟
- توأمتي.

كيف فاتني شيء كهذا؟ لماذا تجمعت كل الظروف لتميتني وأنا حيّ؟ استطردت:

- إيه افتكرت إني ميتة؟ أمال كنت قاعدة معاك إزاي؟!

قالتها ساخرة.. شعرت أنها تحاول منع اجترار ذكرياتها مع شقيقتها الراحلة..

- لأ طبعا خمنت أنها توأمتك بس استغربت أن الصورة متعلقة في بيتك.

لم أستطع أن أصارحها بالحقيقة.. كيف ستنظر لي وقتها؟ هي لم توضع في نفس ظروفي حتى تتفهم ما مررت به.. قالت:

- خالتي كانت بتحب رانيا جدًا.. لدرجة إنها كانت بتتمناها لرفعت بدل مني بس رفعت حكّم دماغه بقى.. لما حصل اللي حصل من شهرين تقريبًا قامت معلقة صورتها بدل صورتي.
- بدل صورتك!
- أصل وقتها كانت المشاكل بيني وبين رفعت قربت على الطلاق.. فعلَّقِتْهَا عِندًا فيّ.. بس الصراحة استغربت لما عرفت منك دلوقت إنها لسه معلقاها.
- ليه؟
- ماهي أكيد بعد ما أنا سيبت البيت فضلت ورا رفعت لغاية ماعرفت أصل الحكاية.

تشكلت معاني الحيرة والتساؤل على وجهها.. فسألتها:

- مالك؟
- بقلك إيه.. أنت لو مكان رفعت ممكن تقول لمامتك حاجة زي دي؟
- مش فاهم.

فصاحت بعصبية:

- يعني لو شوفت مراتك نايمة مع واحد في عربيته.. ومامتك سألتك: مراتك سابت البيت ليه؟ هتقولها إيه؟

داهمتني ذاكرتي بومضات من حديثها عن ليلتها مع ماهر.. لقد كادت أكثر من مرة أن تكمل حديثها ولكني من انهيته.. هيئت لي سذاجتي وقلة خبرتي في هذا العالم أنني من أنهيت حياتها في تلك الليلة ولكنها من أنهتها بفجورها وطمعها وخيانتها لزوجها.. قلت:

- مين اللي عرف الدكتور؟
- عرفه إيه بالظبط؟
- إنك كنتي في الوقت ده ورا "الجبّانة".. ده شارع فاضي تقريبًا.
- حظي الإسود.. له واحد صاحبه شغال في قرية سياحية قدام مقابر الشهدا.. وهو راجع من عنده شافني.

هززت رأسي.. مرت دقائق في صمت.. قالت:

- ما قولتليش.. إتأخرت ليه؟ أنا كنت ماشية خلاص.
- ده أنا اتقطع نفسي من كتر الجري عشان ألحقك.

ابتسمت..

- إنت فارق معاك قوي كده أنك تفضل معايا؟

هززت رأسي وأنا أرمقها بنظرة طفولية محاولة لجذب عطفها.. فتحت حقيبتها وأخذت منها نقودًا وأعطتني إياها.. سألتها بدهشة:

- إيه دول؟!
- دول ألف جنيه.. أنت خاطرت بنفسك عشاني.. ودي أقل حاجة مني ليك.

كان المبلغ كبيرًا بالنسبة لي ولكني شعرت أن هذه فرصتي لإثبات تمسكي بها.. فألقيت بالنقود وكدت أنزل لولا أن أمسكتني وهي تقول:

- ماتبقاش طماع.. أنا كنت ممكن ما أعبركش أصلًا وأعتبر إني ماشوفتكش قبل كده.
- أنا مش عايز فلوس يا داليا.. أنا عايز أفضل معاكي.
- اسمع ياباروني.. اللي حصل بيننا ده غلطة وراحت لحالها.. فلو دماغك هيئتلك إننا ممكن نفضل زي ما كنا تبقى غلطان.. أنا...
- أنا مش عايز نبقى زي ما كنا.

تأملتني باستغراب..

- مش فاهمة.
- أنا عايز أفضل معاكي علطول.
- ماتنساش أني لسه متجوزة يا باروني.. ولو كنت فاكر إن حكاية ماهر...

- إسمعي.. أنا مستعد أعمل أي حاجة عشان أفضل معاكي.. أي حاجة.

قلتها بجدية استغربتها داليا التي سألتني بجدية تضاهي نبرتي:

- أي حاجة؟
- أي حاجة.
- باروني إنت عارف الشنطة اللي أنت سرقتها من البيت دي فيها إيه؟
- ما فتحتهاش زي ماقولتيلي.

ابتسمت برضا وقالت:

- دي فيها كل اللي أنا عرفت أطلع بيه من ماهر.. عارف لو كنت اتمسكت كنت هتاخد سجن أد إيه؟
- وقتها ما كنتش بفكر في حاجة غير إنك ماتبعديش عني.

ابتسمت بثقة وقالت:

- إنت شكلك كده هتخرّج الشيطان اللي جوايا.
- مش فاهم.
- إسمع ياباروني.. أنا كل اللي شاغلني دلوقت إني أرجع لحياتي.. بيتي وابني.. لو طاوعتني في اللي هطلبه منك هتبقى معايا في كل خطوة هخطيها بعد كده.

انشرحت أساريري.. فقلت لها بسعادة:

- **أنا مستعد أغامر بأي حاجة.**
- **بس أنت مش حيلتك حاجة.**
- **من ساعة واحدة، الهدوم اللي عليّ دي ما كانتش حيلتي.**

في تلك اللحظة رأيت في عينيها نظرة إعجاب حقيقية.. بثت فيّ الأمل للعودة لأرضها من جديد.. قالت:

- **مش بقولك.. شكلك هتخرّج الشيطان اللي جوايا.**

الحيّ

(11)

تفاجأت بطلبها ولكن لم أشعرها بذلك.. كان لابد وأن أؤكد لها ثقتها فيّ.. لابد وأن أظل محتفظًا بنظرة الإعجاب في عينيها.. وأمل العودة لأرضها.

وعدتها بتنفيذ طلبها بنبرة ثابتة.. وفور نزولي من عربتها هجرت رائحة عطرها أنفي وعشش مكانها رائحة موت عفنة.. فألقيت ببصري لأجد قطًا منتفخًا ملقًا بجوار الرصيف.. فتشوهت صورة داليا المحتفظ بها في مخيلتي.. ولم ألبث أن شعرت بملمس خشن على يدي فانتفضت للوراء لأجد شحاذة عجوز تسألني - بنبرة محشرجة شديدة القبح - عن مساعدة..

هكذا في لحظة جعلتني أشعر بافتقاد نعومة ملمس داليا وصوتها العذب.

هرعت في طريقي وأنا أتجنب التفكير في الأمر من زاوية عاطفية.. كان كل ما يشغلني هو كيف سأنفذه؟ تخيلت حياتي بعد تنفيذي هذا الأمر.. النعيم الذي سأعيشه بعد ذلك.

توقفت بالقرب من العمارة ومكثت أترقب ريثما طلّ الدكتور رفعت من البلكونة..

بتحديقي في قسماته الوديعة داهمني شعور بالألفة والتعاطف معه فأعرضت نظري على أثره.. فلم أكن بحاجة لهذا الشعور الآن.. رميت عيني على سور المقابر فترامت عليَّ ذكرياتي المتعلقة بها.

كان تخيل رجوعي لها كتخيل دفني في قبرٍ وأنا حيّ.. فوجدت نفسي أنعت رفعت بالنمرود.. الذليل.. فاقد الرجولة.. الديوث.

شخص بهذه الصفات لا يستحق النعم الغارق فيها.. فالموت حلالٌ فيه.

* * *

خيّم الليل وأنا لازلت منتظرًا ابتعاد الحارس عن البوابة.. وأخيرًا ناداه شخص من الطابق الثاني يقصده في طلب، فانصرف.. هرولت على الفور ودخلت العمارة.. لم أكن أعرف ما عليَّ فعله بالتحديد ولكنني كنت أقفز على درجات السلم.

أثناء صعودي مررت على باب مفتوح.. كان يتضح من صخيب الأغاني والتصفيق أنه يشهد احتفالًا ما.. توقفت أمام باب منزل الدكتور رفعت.. كان يسكنني شعور بالخوف والتردد.. حاولت استجماع قوتي ورَفعت يدي لأدق الباب وفجأة سمعت أحدًا يفتح باب المنزل المقابل.

* * *

توقفت على الرصيف المقابل لرصيف العمارة وأنا ألهث.. لم أقفز على درجات سلم بهذه السرعة من قبل.. والآن لابد وأن أفكر في طريقة ما قبل مجئ الحارس.. أخذت أتفحص المكان في محاولة لإيجاد فكرة ما.. ولم يلبث أن توقف أمامي شخص راكبًا دراجة بخارية سألني عن عنوان ما، فصارحته بجهلي به.. وقبل أن يتحرك أخذ يلعن مهنته والظروف التي دفعته لشغلها.

كنت قد لاحظت وجود صندوق على مؤخرة دراجته لصق عليه دعاية لأحد المطاعم.. فشعرت بأن في مجال مهنته ما سيلهمني بفكرة.. فاستوقفته وتناقشنا حولها.

* * *

توقفت أمام باب منزل الدكتور رفعت وطرقت على بابه دون تردد.. لم يلبث أن فتح الباب لأجده أمامي.. حدق فيما أحمله.. كان بين يدي علبة كرتونية لأحد مطاعم البيتزا.. فلقد تركني راكب الدراجة البخارية وهو مندهش من جهلي بوظيفته.. وكيف لي أن أعرف مهنة "خدمة توصيل المنازل" في مكان لم أرَ فيه خدمة غير توصيل الموتى؟

أخذت أبحث في مخلفات القمامة إلى أن ألقى لي القدر بالعلبة الكرتونية من أحد النوافذ.

هز رأسه مستفهمًا فقلت له:

- طلب البيتزا.
- أنا ماطلبتش بيتزا.

- مش منزل الدكتور رفعت؟
- أيوا.. بس أنا ماطلبتش حاجة.

هكذا بدأ حوارنا.. حاولت بقدر الإمكان التأكد من وجوده بمفرده في المنزل.. على الأقل بصحبة ابنه فقط ولكن فجأة ظهرت والدته من خلفه.. انتابني شعور بالقلق ولذلك فقد اعتذرت وكدت أرحل ولكنه استوقفني.. يبدو أنه لاحظ توتري بمجرد ظهور أمه.. فقال:

- أنا ماطلبتش حاجة بس أنا هاخد منك الطلب عشان ماتتأذاش في شغلك.
- لا يافندم مفيش أذية ولا حاجة.. مع السلامة.
- استنى عندك.

قالها بنبرة آمرة فانقبض على أثرها قلبي.. وقال:

- بقلك هاخد البيتزا.. هات الرسيت.
- أصل .. أصل.
- مالك واقف كده مش على بعضك.
- هات.. وريني.

خطف مني العلبة فتثبت مكاني غير قادر على الفرار.. ماذا أفعل الآن؟ هل استعطفه أم أنهي حياته أم...

- دي فاضية.

قالها رفعت بريبة.. وهنا قالت والدته وهي تحدقني بتفرس:

- هو ده يا رفعت.. هو ده.

وقبل أن يستفسر رفعت عن مقصدها وجدت شيئًا يدفعني للفرار.. فتخبط صوت رفعت بين الجدران وهو ينادي على حارس العقار.. سمعت خطوات رفعت تقفز في أثري.. ولم يلبث أن سمعت صوت استجابة حارس العقار.. أمسكت بالترابزين بمجرد أن لمحت ظهوره في نهاية درجات السلم.. فصعدت السلم من جديد لأجد الدكتور في أعلى درجات السلم المؤدي للطابق العلوي.. لم أجد نفسي غير وأنا أدخل من أحد الأبواب.

كانت هي نفسها الشقة التي رأيتها أثناء صعودي يحتفل أهلها بأمرٍ ما.. وقد حالفني الحظ عند دخولي أنهم قد أغلقوا المصباح الكهربائي وهم يغنون احتفالًا بعيد ميلاد أحدهم حول أضواء الشموع.

تسللت من خلفهم لأستقر في البلكونة.. سمعت ضجيج كان يشوبه صوت رفعت، فانفتحت المصابيح..

- أيوا زي ما بقلك كده يا باشمهندش محمد.. في واحد حرامي لسه داخل عندكم دلوقت.

قالها رفعت فتسربت بعض صرخات الفتيات هلعًا.. جاء صوت غريب:

- اقفلوا الباب.

جاءت أصوات محتدمة تطلب خروج النساء والبحث في الغرف.. وسمعت بعضهم يقتربون من مكاني.. لقد انتهى أمري.

(12)

تكومت في زاوية متأثرًا بالكدمات والجروح المتناثرة في أنحاء جسدي.. مر من أمامي جندي رمى عليّ نظرة باردة وأكمل طريقه دون التوقف عندي.. يبدو أنني عدت لمظهري الرث مرة أخرى.. وقعت عيني على شخص يقترب.. في البداية ظننته هو ولكني بتدقيقي لم أعثر عليه في ملامحه.

لقد كانت سقطة قوية.. كادت أن تقسم ظهري.. لو لم أنتقل من بلكونة المهندس إلى البلكونة المجاورة لكنت بين جدران السجن الآن.. لقد ساعدني القدر كثيرًا ليلة أمس.. فلولا عدم وجود أحد بها لضطررت للقفز ليلتها.. ومن المؤكد كان سيمسك بي حارس العقار الذي أمروه بغلق البوابة والإنتظار خارجها.

بتّ ليلة من الخوف ومعاندة النوم في انتظار فرصة أنتهزها للقفز.. كانت المسافة بين نقطة انطلاقي من الطابق الأول إلى الأرض تساوي عدة أمتار قليلة ولكنها كافية بتهشيمي.

بعودتي للشارع الخلفي للمقابر عاد لي حماسي من جديد.. فلقد قضيت ليلة أمس في تأنيب ضمير وتمني أن يعود بي الزمن حتى لا أقدم على ما أقدمت عليه ولكن بجلوسي أمام سور المقابر وباستقبالي نظرة الجندي الباردة قد استشاط غضبي من جديد.

كيف لشخص ضعيف مهزوز ديوث كرفعت أن يطاردني بهذا الشكل المهين؟! ألهذه الدرجة وصلت حقارتي وتفاهتي؟! هل أنا وضيع للدرجة التي يطاردني شخص كهذا؟ هل أصبحت آية يستشهد بها المخنثون برجولتهم؟

وقعت عيني على صورة دعائية تتصدرها امرأة غاية في الجمال.. فشعرت بحنين إلى داليا ولكن سرعان ما شعرت بجمرة من نار تتخبط في جنبات صدري.. لا أستطيع تخيّل عودتها لرفعت.. تخيّل أن يلمسها.. أن يقص لها بطولاته في مطاردتي.. أن أخذلها.. تخيل عودتي في انتظارها للوقوف في البلكونة.

وفجأة وقعت عيني على شخص آخر يشبهه.. دققت النظر بقدر استطاعتي.. ما هذا؟.. أنه لا يشبهه وحسب.. بل إنه هو.. الدكتور رفعت.

* * *

يبدو أن رفعت يقصد القرية السياحية المقابلة لمقابر الشهداء حيث صديقه.. مشيت في أثره وأنا أفكر فيما سأفعله.. لم يكن في عقلي خطة بعينها ولكن في داخلي حقد كفيل بتقطيعه إربًا.. لم أكن مهتما بنجاح فراري بقدر اهتمامي بنجاح ضمه للقائمة المتراصة داخل سور المقابر.. وفجأة توقف، فاستلقيت مكاني.. استدار يتأمل ما وراءه.. يبدو أنه شعر بي ولكن الغريب أن عينيه وقعت عليّ ولكنه لم يكترث لأمري.

سوف تعلم الآن أن التافه الذي أهملته عينيك سوف يكون أهم حدث في حياتك.

نهضت مرة أخرى فتعثرت في علبة معدنية فأحدثت صخبًا.. التفت رفعت خلفه فاتقابلت أعيننا.. ثبتُ لحظة في مكاني قبل أن يعرفني.. ولم ألبث أن انطلقت بأقصى سرعتي عليه وأنا أشاهد الذعر في عينيه.. رميت نفسي عليه وسقطنا أرضًا.. ثبّتُ أكتافه بالأرض وأنا أبحث عن أي حجر بجواري لأهشم به رأسه.. دفعني بعيدًا عنه فسقطت على الأرض.. رفعتُ بصري فرأيته يركض تجاه الطريق، فركضت في أثره.

توقف رفعت فجأة على الرصيف الفاصل بين الاتجاهين بعدما أعاقته عربة نقل عملاقة.. وكانت هذه فرصتي.. دفعته فارتطم رأسه بإطارات العربة الخلفية التي دفعته بقوة سرعتها عدة أمتار للخلف.. سقط رفعت أمام البوابة الخلفية للمقابر.. في نفس المكان الذي شهد حادثتي.

التفتُّ حولي فلم أجد مارة.. كانت العربة النقل قد ابتعدت.. فصخيب حركتها إضافة إلى ارتطام رفعت في أقصى مؤخرتها ساعد على عدم ملاحظة السائق.

* * *

بعد يومين مررت من أمام العمارة.. ورميت بصري على البلكونة.. كانت داليا حاملة ابنها وهي مرتدية السواد.. كانت تبكي بحرقة أثناء وقوف امرأة بجوارها تحاول التخفيف عنها.

توقفت لوهلة وأنا أحدق في البلكونة التي سأمتلكها بمن فيها عن قريب.. ها أنا قد ملكت المفتاح.. وها أنا على بعد خطوات من باب الدنيا.

يونس

(13)

بعد سنتين ..

بمنزل زوجتي داليا كنت منبسطًا على الأريكة.. واضعًا قدمي اليمنى على سجادة ذات ملمس ناعم.. أقضم بأسناني ثمرة وأنا أتابع التلفاز.. كانت صورة توأم داليا لازالت معلقة على الحائط.

جائني صوت داليا من غرفتها تنادي:

- **يونس.. يونس.**

خرجت داليا من غرفتها.. كانت مرتدية السواد.. صاحت بذهول:

- **يا نهارك إسود! إنت لسه مالبستش؟!**
- **أنا أصلا مش رايح.**
- **هو بمزاجك!**

رمقتها بغيظ.. فجلست بجواري وقالت ساخرة:

- **إيه؟ شايفاك متضايق.**

نظرت إلى التليفزيون، فجذبت رأسي إليها.. وقالت بتهكم:

- **لما أكلمك تبصلي.**

كثيرًا ما تشعرني داليا بأنني أتحدث مع رجل.. فأسلوبها الجرئ الفظ طالما رأيته ميزة في بداية تعارفنا.. أما الآن لا أراه هكذا.. أردفت:

- اسمع.. المهندس محمد ده ماسابنيش في يوم رفعت.. فمش معقولة يوم ما مراته تموت إحنا مانبقاش موجودين.
- داليا.. إنتِ عارفة أني مابقتش بد...
- مابقتش بتدخل المدافن.. على أساس أن يونس بيه..

أشارت لي بسخرية ..

- مولود في سرايا عابدين!.

حدقتني بنظرة قوية ثم ضربت بكفها على جبينها كالتي تذكرت شيئًا ما..

- أه نسيت.. نسيت الإسطوانة اللي فلقتني بها من ليلة جوازنا السودة.. أنا حفيد كاظم بيه الباروني.
- باشا.

قفزت من مضجعها وصاحت بهستيرية:

- إنت هتهزر!

كتمت ضحكتي.. فأنا في غنى عن مشاكل حقيقية مع داليا.. فمن ليلة زواجنا وهي تخلق مشاكل من لا شيء.. فما الحال لو كان هناك

أساس.. ولكنني أحاول من وقتٍ لآخر زرع الفكاهة لعلها ترجع كما كانت.

ظلت تفتش بعينيها عن شيء ريثما وقعت عينيها على حجاب أسود في يد ابنها عمر.. جذبته منه بعصبية وهي توبخه.. وضعت الحجاب على رأسها.. فسألتها متعجبًا:

- إنتِ اتحجبتي.
- لأ.. هداري بيه شعري لغاية ما أقضي الواجب وهروح للكوافير.

يبدو أنها انتبهت للطف حديثها فعدّلت من نبرتها وصرخت في:

- وأنت مالك أنت!

أمسكت بيد عمر وفتحت الباب قائلة بنبرة آمرة:

- تلبس هدومك وتنزل ورايا حالًا.

كادت أن تنزل ولكنها رجعت كالتي تذكرت شيء:

- أه.. واسترجل بقى شوية.. ده "عمر" اللي ماكملش الخمس سنين مابيخافش يدخل المدافن.. تقوم أنت تخاف!
- هخاف من إيه؟ قلتلك ميت مرة إن...
- الكلام ده تقوله لحد غيري.. أمال هتموت ليه وعايزني أبيع الشقة؟ ده أنت بتخاف تبص من البلكونة.

لقد وضعت داليا يدها على نقطة خلافنا.. البلكونة.. فهي تعشقها بسبب موقعها على البحر.. وأنا أعشق التمتع بكل نقطة يتكون منها البحر ولكن ليس عبر النظر على المقابر.

كثيرًا ما حسدتُ داليا لقدرتها على تأمل البحر لساعات دون اعتبار للمقابر.. وكأن عيناها مصفاة لا ترى مياه البحر إلا نقية من أي شوائب تذكّرها بالموت.

حاولت إقناعها ببيع المنزل وشراء غيره يتمتع بنفس ميزة الموقع ولكنها ترى أن وجود المقابر في حد ذاتها ميزة.. فهي ضامن قوي على عدم تشييد أي بناء يحجب رؤية البحر.

حتى عندما أخذتُ ذريعة احتياجها للمال من أجل إنشاء شركتها الخاصة.. فقد اقترحتُ عليها بيع المنزل وشراء غيره أقل كُلفة للإستفادة من الفرق رفضت أيضًا.. فلقد كانت واضعة في حساباتها بيع المنزل الواقع أمام "مستشفى بورسعيد العام".. هذا البيت الذي ورثته من أبويها.

فضّلت بيع المنزل الذي احتوى على ذكرياتها.. والذي آواها فترة خلافها مع رفعت على أن تبيع منزلها في منطقة "الجوهرة".

استطردت بعدما طفقت وهلة ترمقني باحتقار:

- إيش حال لو ما كنتش قضيت عمرك كله في المدافن!.. يايونس باشا.

قالت اسمي بسخرية ونزلت بعدما أغلقت الباب خلفها بعنف.. يبدو أنني سأنزل مضطرًا.. أنا لست مستعدًا لخسارة داليا ولكن كيف الحال الآن؟.. إنني بالفعل أشعر برهبة من رؤية المقابر.. لا أعرف لماذا؟

هل لأنها تذكرني بأسوء أيام حياتي؟

أم لأنني أصبحت أخاف منها الآن بعدما ابتعدت عنها؟

أم لأنها تثير فيَّ الذعر بجعلي أتذكر ما اقترفته من زنى وسُكر وسرقة وقتل؟

فمنذ انتقالي لمنزل داليا وأنا في حاجة ملحة للإبتعاد عن المقابر.. أريد نسيانها..

وكيف الحال إذا تغلبت على خوفي ودخلت المقابر.. هل سيعرفونني؟

وهل هو سيعرفني؟

نهضتُ من مجلسي.. فتحتُ الباب وأنا أخفض من رأسي لعله يترقب البلكونة كعادتنا القديمة معًا.. ها أنا واقفٌ في البلكونة التي حلمنا بالوقوف بها أنا وصديقي.

المشهد من الأعلى مختلف تمامًا.. كانت المقابر كمقاعد بيضاء موجهة إلى البحر.. تبرْزُها أشجار نضرة.. هذا المشهد لا ينم إلا على حياة هادئة مريحة خالية مما يعكر صفوها ولكنني لازلت أراها بعين الموت والذل والفقر.

تفحصت المقابر بنظرة سريعة إلى أن رأيته..

نعم كان هو..

"الباروني"..

كان ينثر المياه والخوس على أحد القبور.. وكعادته يتراجع عدة خطوات في انتظار ما يخرج من ذمة الزبون.. لازال الباروني يخاف الناس!.

انتبهت لقبر جدي الواقع بالقرب منه.. "كاظم إبراهيم الباروني".. صاحب اللقب الذي أطلق على صديق عمري من قِبل أمه.

تذكرت عندما شهد هذا القبر على اتفاقنا.. فعندما علم الباروني أنني الحفيد الثاني لـ"كاظم إبراهيم الباروني"، قد أبرم معي اتفاقًا.. كان ينص على: عدم استعمال لقبي (الباروني) والإكتفاء باسمي الأول: "يونس".

أتذكر وقت الإتفاق أننا ضجرنا بالضحك عندما حاول "الباروني" أن يزيد من مغريات الاتفاق.. حينها قال لي:

- إنت يا يونس قدامك ميت اسم تختار منه.. يعني لو ماعجبكش "يونس" عندك أسماء تانية.. ياجدع ده إنت إسمك كله ألقاب.. "يونس عز الدين طوبار كاظم إبراهيم

الباروني".. أما أنا "الباروني محمد محمد أحمد محمد".. يعني ما حيلتيش غيره.

وافقت بالتأكيد.. فقد رأيت وقتها أن الفائدة العائدة عليّ هي عدم تذكر انتسابي لأسرة ثرية وعائلة عريقة.. وقد ساعدني هذا على العيش سنوات في المقابر.. فليس من السهل تذكر حياتي الرغدة التي انتهت بماس كهربائي.. هكذا في لحظة تحوّل مبنى مكون من طابقين إلى رماد.. في لحظة انهار منزلي ومتجر التحف الذي كان يعتبر مصدر الرزق الوحيد لنا.. في لحظة مات أبي وأمي.. في لحظة ودعت مدرستي وأصدقائي وطفولتي.. في لحظة اختفى كل شيء ليتبقى لي جدي الذي رعاني إلى أن ودعته في المقابر.. بعدما عاش فيها آخر أيامه.

ولذلك وبعد هجري المقابر قد وجدت أن استخدام لقبي (الباروني) قد حان.. فكنت أقدم نفسي به.

لاحظت أن الزبون قد رحل فانصرف الباروني وهو يعرج بساقه اليمنى.. يبدو أن الحادث قد حفر على عظام ساقه ذكراه.. ويبدو أيضًا أنه بالرغم من قسوة الحادث إلا أنه لم يستطع إقناع الباروني بترك المقابر.. فقد رجع للعيش فيها بمجرد انتهاء علاجه بالمستشفى.. فلازال الجُبن يعشش في صدر الباروني.. والباروني يعشش في صدر "الجبانة".

بتذكري الحادث تذكرت المسجل.. فلم استخدمه منذ أن قتلت رفعت.

دخلت غرفتي وأخذت أفتش في أغراضي.. وقع بين يدي.. شحنت بطاريته.. وأرجعت الشريط من بدايته.

بدأت سماعات المسجل تصدر لي صوت "الباروني" المحشرج.. وهو يسرد قصته:

" أنا شاب يوشك على السقوط من حافة عقده الثالث، اسمي هو "الباروني"، وهذا ليس باسم شهرتي أو لقب عائلتي، بل أنه اسمي الأول، أمي من انتخبته لي من بين أسماء جيرا..."

أسرعت ريثما تطرقت إلى أذني سرده لحوارنا، الذي كان يفضله بالفصحى، فهو يعشقها لارتباطها بالقرآن الكريم، بعكسي أنا، فطالما أحببت سرد حوارنا بالعامية لارتباطها بحديث أهل الدنيا:

- ***قعدتك بجواري وأنا أسجل أتت بفائدة.***
- ***لأ.. لو أنت التحقت بمدرسة وكنت تكتب الشعر، فأنا حافظ تسعة أجزاء بالتجويد، أنسيت؟!***
- ***أنا لا أتذكر إلا صوت نهيقك.***

ابتسمت، ثم أسرعت مرة أخرى إلى أن توقفت عند نهاية حديثه:

"اصطدمت بواجهة سيارة ضخمة، دفعتني، فارتطمت رأسي بالأرض، فاختفت الدنيا من أمام بصري، ليحل مكانها ظلام مدلهم."

ولم يلبث أن اختفى صوته المحشرج ليحل محله صوتي الخافت الصافي.. فمنذ سرقتي للمسجل، الذي تسبب في مطاردة الباروني لي وانتهت باصطدامنا في نفس العربة، ولم يتطرق للمسجل غير صوتي أنا.. يونس كاظم الباروني.

ابتسمت عندما سمعت افتتاحي لقصتي:

"الآلام تعبث، تهرس، تحرث رأسي.. هذا ما أدركته منذ استرداد وعيي.. بدأت أنتبه لضوضاء خلف ظهري.. وما أن التفتت حتى تلألأت الأوجاع في جسدي..."

أغلقت المسجل ووضعت الشريط على الجهة الأخرى.. وشغلت المسجل.. فسمعت صوتي مرة أخرى:

" نصحتني داليا بتقضية الليلة في مكان لم يخطر لي على بال.. فلقد تركت شاطئ البحر بامتداده وأشارت لي على بيت مهجور في مقابلة البحر..."

أخذت أسرع من الشريط ريثما توقفت في نقطة خالية من صوتنا.. فوجدت صوت أم كلثوم يحلق:

" إنت عمري.. اللي ابتدى بـ"

أغلقت المسجل.. وقبل أن أتخطى حدود الغرفة اصطدمت بشيءٍ ما.. رجعت للخلف ورمقت باب الغرفة الزجاجي.. فتذكرت يوم دخولي

تلك الغرفة لأسرق حقيبة داليا.. فلقد أحضر رفعت هذا الباب (جانب زجاجي وجانب مرآة) حتى يتيح له رؤية زبائنه المرضى في الصالة الخارجية.

بزواجي داليا ورؤيتي هذا الباب قد علمت أن له الفضل في نجدتي.. فعندما سقطت والدة رفعت فاقدة الوعي، قد اضطربت خطواتي خوفًا من مواجهة رفعت.. وقتها شاء القدر أن تستقر خطواتي خلف هذا الباب.. لقد وقفنا في مواجهة بعضنا البعض دون علمنا.. لحظتها كنت أرى رفعت من خلف زجاج يشف الرؤية.. وهو في نفس اللحظة كان يرى نفسه في المرآة.. وأنا من سذاجتي قد استشفيت أنني مجرد روح بدون جسد.

فتحت الباب وتوجهت للبلكونة لأجد "الباروني" قد توقف أمام الباب الخلفي للمقابر.. يتأمل "مصيف ضباط الشرطة" الفاصل بينه وبين البحر.. ضغطت بأصبعي على زر المسجل لأضع صوتي مرة أخرى بعد سنتين.

* * *

لقد ترك الباروني وراء اسمه أسماء شائعة، ليعيش حياة غير شائعة.

أما أنا فقد تركت ورائي أرض تلتهم اللحم وتلفظه عظامًا إلى أرض أوكلت لي تلك المهمة.. أرض لم ألمس في نسائها غير أسمائهن المتصدرة

القبور إلى أرض أقرأ نسائها بطريقة "برايل".. أرض تطرح الدود إلى أرض تطرح الثمار.. أرض صوتها الصراخ وصرصرة الليل إلى أرض الموسيقى وضحكات النساء.. أرض كأسها ممتلئ بجهاد النفس إلى أرض كأسها ممتلئ بسُعار الملذات.

في الليلة التي نويت فيها هجر تلك الأرض لم أعلم لي مقصد.. فقفزت إلى مقابر الكاثوليك.. وفي غفلة عن أعين الحارس قضيت أيامي مختبئًا بين الأضرحة.. إلا أنني كنت أفضل الإستلقاء بجوار مقبرة "مسيو سيمونيني".

بمجرد أن وقعت عيني عليه تذكرت ذاك النهار.. عندما أمسك بي حارس المقابر في صغري وأنا ألعب بعيدًا عن "الباروني" الذي كان يفضل مقابر الكومنولث.. ومن بعدها أصبح الحارس صديقي وهو من حدثني عن مقبرة "مسيو سيمونيني".

علمت منه أنه كان إيطالي الجنسية.. ويُعد رائد السياحة في بورسعيد.. فكان يملك كلا من : كازينو البالينيير، وبالاس، وحلواني رويال.

تلك الحكايات كانت بمثابة البذرة التي تفرعت منها جميع أحلام يقظتي.. فكيف لشخص يملك قبر بهذا الجمال أن يعيش دنياه.. كان القبر يقع عليه قاعدة رخامية مدرجة.. تحمل ما يشبه المركب.. وكان هناك تمثال لفتاة تبكي متكأة على القبر.

مرت عليّ أيام جالسًا أمامه أتخيل أنني أعيش دنيته المزينة بالنعيم والاحترام والتبجيل.. أرى في مقبرته بيتًا لي.. والأشجار المحيطة به هي حديقتي المرصعة أشجارها بالثمار المتنوعة.. أتخيل تمثال الفتاة الباكية ينهض وتتمايل عليَّ بطريقة مغوية.. لقد رأيت في مماته حياتي إلى أن نويت.

ويبدو أنني في ليلة هجري الأبدية لجميع المقابر لم أقوّ على ترك حياتي كلها خلفي.. فانتظرت لبعد منتصف الليل وقفزت عائدًا إلى مقابر المسلمين.. تسللت للحوش الذي يتخذه "الباروني" سكنًا له.. تعمدت ألا أتأمله حتى لا أحن لأيامنا ويصبح عزمي بالهجر واهن.

التقطت المسجل من جواره وفررت.. وبعد برهة اكتشفت أنه استفاق على صوت حركتي ويطاردني.. حاولت أن أصل للباب الخلفي بأقصى سرعة حتى لا تتيح له الفرصة لرؤيتي.. قفزت من الباب إلى شارع 23 يوليو.. قلت وقتها أنه لن يقوى على مفارقة القبر.. فهو يخاف الخارج ولكن كان للمسجل أهمية كبيرة له بأن جعله يفاجئني ويقفز في أثري.

لم أتذكر وقتها غير سماعي لمكابح سيارة وقبل أن التفت للخلف شعرت بصدمة قوية قضت على حياتي.. أو هكذا فهمت وقتها عندما وجدت الناس يحملون شخصًا يرتدي مثلي تمامًا.. فاعتقدت أنه جسدي ولكنه في الحقيقة كان "الباروني".

قوة الصدمة كانت قد أنستني أن الثياب التي وهبتها جهة خيرية لي وللباروني، كانت عبارة عن أربعة أثواب.. يتطابق كل اثنين منهما في المقاسات والألوان.. ويرجع هذا بسبب نوعية المتبرعون لتلك الجهة.. فلقد كان جزء كبير منهم يعملون بالتجارة.

لقد كانوا يتبرعون بأثواب قد أوشكت على التلف من فرط مدة تخزينها.. ولذلك كان من المتوقع حصولنا على أثواب متشابهة.. وهذا ما دفعنا لوضع جدول نرتدي فيه الأثواب مخالفة.

تذكرت عندما حاولت طلب المساعدة ممن التفوا حول الحادث.. يبدو أن ثيابي المتسخة واستلقائي مصطفًا بالرصيف قد جعلهم يعتقدون أنني مجرد مجذوب أو شحاذ.. ويبدو أيضًا أن قرب "نوفل" من موقعي قد أكد هذا.. فتعاونوا على حمل الباروني دون علمهم أن العربة قد صدمت شخصين لا واحد.

الباروني الآن يرتدي ثوب جديد.. يبدو أنه أصبح له رفيق جديد يخرج ويحضر له احتياجاته من خارج المقابر.. هناك شعور بالحنين يغمرني تجاهه.. صوت في أذني يحرضني للنزول والوقوف من خارج الباب لأصحح له الدنيا التي طالما وضع لها تخيلات خاطئة ولكن هناك رهبة تمنعني وكأنه سوف يخطفني لداخل المقابر مرة أخرى.

أعتقد لو توفرت لي الفرصة للتحدث معه لأخبرته بالكثير عن هذه الدنيا.

كنت سأخبره أن المرأة التي طالما حلمنا بها نسبة كبيرة من جمالها هو من صنع خيالنا.. فخلقها بطبيعته ليس بالروعة التي كنا نشاهدها عليه من خلف الباب.. بدون مستحضرات التجميل أراها وكأنها أخرى.. ليست بالعذوبة والنعومة والمناغاة بل أحيانا عديدة يهيأ لي أنني أتحدث مع رجل.. ليست المرأة التي انتظرناها لتساعدنا على إيجاد الرجل بداخلنا.. فما فعلته أنها نافستني على امتلاك هذا الرجل.

حتى المنزل فليس بهذا الاتساع الذي تخيلناه.. وطفلها ليس اللهو معه بتلك الروعة بل أحيانًا عديدة أتمنى لو استطعت إلقائه من النافذة.

حتى الثمار التي سال عليها لعابنا فامتصاصها الكيماوي جعلني أشعر أنني أتذوق كور من البلاستيك.

كنت سأخبره أنه سيخسر الكثير من طباعه.. فلو جاء ورأى كيف توبخني داليا وتسخر مني ليل نهار سيفهم مقصدي.. ففي البداية كنت أكتم غيظي وأبرر لنفسي أن هذا بمثابة الضريبة المدفوعة.

كنت سأخبره أنني بخروجي من المقابر قد زنيت ولازلت أزني حتى بعد زواجي من داليا.. فقد اعتقدنا أننا بتذوقنا امرأة في مثل قوامها سيكون بمثابة تذوقنا لجميع نساء العالم ولكنني اكتشفت خطأ تلك النظرية.. فمنذ أن حفظت ثناياها وقد أصبت بسعار تذوق أي امرأة جديدة.

لا أعرف ما السبب؟.. هل أنا جشع بطبيعتي؟ أم امتناع داليا المتكرر هو ما دفعني لذلك؟ أم برودها الذي لم أكتشفه أثناء لقائنا الأول في البحر؟ فلقد كنت ليلتها لا أرى غير متعتي.

ماذا كان سيقول؟ وماذا كان سيفعل؟ وقد علم أن الدنيا لا تفرق كثيرًا عن الصور الدعائية المعلقة في الشارع الخلفي للمقابر.. صور تسرق الأبصار لنساء وأطعمة وسيارات وبيوت ولكن بلمسهم نكتشف أنهم ألواح بلاستيكية.

* * *

أغلقت المسجل وجلست.. شعرت أن ما قلته صحيح ولكن من داخلي هل أستطيع تحمل البعد عن كل هذا؟ الإجابة: لا.

نعم أعترف أنني لا أريد الإبتعاد عن الدنيا.. بل لا أكتفي بها وأريد أن أصعد لوجهها.. وأعترف أنني بعد تذوقي كل هذا أريد المزيد.. وعلى استعداد لدفع جميع الضرائب حتى الضريبة المتمثلة في تأكدي حول شكوكي في داليا.

نعم فلم أستطع تسجيل هذا.. فالسرعة التي أنشأت داليا بها شركة الإستيراد والتصدير الخاصة بها مشكوك في أمرها.. فأنا على علم بكمية علاقاتها العامة.. وأعلم كم المجاملات التي تتعدى الحدود مقابل خدامات عديدة ومع ذلك أتناسى هذا الأمر.

كم كنت ساذجًا عندما صدقت أنني الرجل الوحيد الذي عاشرتها من بعد رفعت.. ما الفرق بيني وبينه الآن.

غمرتني موجة غضب فأمسكت بالمسجل وألقيت به من النافذة.. فسقط مهشمًا على الأرض، وتحول لفتات بعدما دهسته سيارة.

لازلت أشتهى وجه الدنيا.. لا أكتفي بأن تصفه داليا لي وحسب.. وهذا ما أخطط له من الآن.. فلقد انتهزت الفرص القليلة التي تركتها داليا لي لمقابلة بعض العملاء وحصلت على علاقات عديدة.. وبمجاملتي لهم بتقديم ليالي تتميز بالسهرات الحمراء المجانية سوف أصل لوجه الدنيا عن قريب.. من دون داليا.

نهضت وارتديت ثيابي لألحق بالجنازة.. فمن الآن إلى لحظة صعودي لابد وأن أحافظ على داليا.

لا أعرف ما سأفعله بالتحديد ولكن الخيال الذي أخرجني من المقابر كفيل بأن ينير لي الطريق لوجه الدنيا.

رميت نظرة على الباروني وتحركت للنزول.. وضعت يدي على مقبض باب المنزل متهيئًا للخروج.. وفي الجهة الأخرى وضع الباروني يده على باب المقابر لنفس الهدف.. وفجأة داهمني شعور بالخوف لمجرد تخيلي الدخول للمقابر.. عجبًا لهذا الخيال! فلولاه لما ملكنا الدنيا.. ولولاه لما تملّكنا الخوف.

(14)

كان هناك شعور يمنع كل منا من عبور الباب.. هل هو الخوف من مستقبلنا؟..

ماضينا؟..

لقائنا؟..

هل سنفعلها أم لا؟

<u>تمت</u>

شكر خاص لكلٍ من:

محمد عصمت.. وسام الحناوي.. عبدالله الشلقاني.. شيرين هنائي.. وليد عبد المنعم.. محمد مصطفى عبد الجليل.. عبير محمد.. أحمد كشك.. عبد الخالق فوزي.. إيمان سلامة.. سامح سمير.. السيد عاطف.. مصطفى غنيم.. سلمى العقيلي.. محمد سلامة.. فادي مجدي.. مصطفى جبيلي.

Noon_publishing@yahoo.com
ت -02 35860372- 011-27772007